حكايات عربية

هاجرت إلى أوروبا!

يتفق الباحثون الأوربيون ممن يحترمون موضوعية العلم، ومنهجية البحث ويرتفعون بأبحاثهم فوق مستوى العصبية أياً كان شكلها، على أن الحضارة العربية فى أوج ازدهارها على امتداد القرن العاشر الميلادى، كانت وراء نهضة أوربا، ثم يختلفون فى الطريق الذى سلكته إلى بلادهم.

فالعالم الألمانى هانز بروتس يرى: أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد وراء نمو أوربا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ومنها انبثقت كل العوامل التى أدت إلى تكوين أوربا الجديدة، أوربا عصر النهضة، والاكتشافات، وعصر الإصلاح ثم يشير أيضاً إلى أنّ إسبانيا وصقلية العربيتين كانتا مركزين هامين فى نقل التراث العربى إلى أوربا، ولكنه سرعان ماينسى رأيه هذا، ويجعل من فلسطين المصدر الوحيد.

ولكن إرنست بيكر محرر مادة الحروب الصليبية فى كتاب «تراث الإسلام» الذى أصدرته جامعة اكسفورد الانجليزية فى الثلاثينيات يرى: «أن هذا الزعم باطل، لأن حركة المولدين

والمستعربين فى إسبانيا وصقلية كانت أكثر نفاذاً، وأوسع محيطاً، وأبعد عمقاً، ولو أنّه جاء متأخراً بعد أن حدث الاتصال بسبب الحروب الصليبية فعلاً، على نحو أو بآخر» ويرى: «أن اللاتينيين فى سورية لم يستطيعوا أبداً أن ينفذوا إلى وهج الثقافة الإسلامية، على نحو ما فعل المسيحيون فى غربى البحر الأبيض، أيام تألق حضارة قرطبة، وكل إسبانيا الإسلامية».

ويرى آخرون: أن الحروب الصليبية كانت عاملاً إلى جانب عوامل أخرى عديدة أدت إلى يقظة أوربا بعد سبات عميق.

وبعيداً عن هذا الصراع، وهو قومى سياسى فى أبعاده، يضع فى حسبانه الاعتراف بدور إسبانيا، إسلامية أو مسيحية، فى نهضة أوربا أو إنكاره، يمكن القول إن الحروب الصليبية لعبت دوراً حاسماً فى الجانب الدينى، فهبطت بهيبة الباباوات الدينية، وهزت نفوذ طبقة الرهبان وغذت الشك، ودفعت بطبقات كثيرة إلى التمرد على سلطان الكنيسة ولم تكن تجرؤ على فعل هذا من قبل.

وفى الجانب الاقتصادى والاجتماعى جاءت معها بمساواة أكبر بين الطبقات على نحو لم تعرفه أوربا من قبل. وأوجدت طبقة من الفلاحين الأحرار ومن الحرفيين، وازدهرت الصناعة، ونمت التجارة، وانتشرت النباتات والحاصلات العربية، وشاع استعمال العقاقير المشرقية، والتوابل، وعرف الغربيون استخدام السكر فى الحلوى،

وكانوا قبل ذلك يستخدمون العسل، وأدخل الصليبيون العائدون إلى بلادهم عادة فرش البسط والسجاجيد على الأرض، واستخدام الفراش، واقتناء الجواهر، وأدوات الزينة والمساحيق، وأشياء أخرى كثيرة.

وفى مجال السياسة أدت الحروب الصليبية إلى قيام دول ذات سلطة مركزية وإدارة منظمة، وقضاء مستقل، وكان ذلك أمراً جديداً على أوربا فى العصور الوسطى لا عهد لها به من قبل.

لكن الأندلس، أو إسبانيا الإسلامية إذا شئت، أخذت الحظ الأوفر فى مجال الأدب والثقافة، لأن انتشاره إذ ذاك كان يعتمد فى المقام الأول، على الرواية الشفوية، وينهض به الشاعر الجوال، وتحمله الأغانى في رحلتها من الجنوب إلى الشمال، أو أهل الشمال حين يتدفقون على الجانب العربى فى الجنوب، وهى أمور لكى تعطى ثمارها تتطلب القرب والتواصل والتعايش والتعاطف، وسهولة وسائل الانتقال، وأمنها، وتوفير أدواتها، وامتداد التلاقى واستمراره بين قطاعات عريضة في المجتمعين، وهو ما كان ممكناً في الأندلس أكثر وأعمق مما كان عليه الحال في المشرق. ومن هنا يمكن القول إن العناصر الثقافية التي تكونت منها الحياة العقلية الأوربية في مجالات الفكر والفلسفة، والشعر والقصة، في القرن الحادي عشر وما تلاه، وحتى في الأدب المعاصر، تعود في جانب كبير منها إلى الحضارة الراقية، التي توهجت عند جيرانهم الإسبان المسلمين، ومن هذه

الأرض جاءتهم، أو على أيدى أبنائها تعلموا، سواء كانت إبداعاً أندلسياً أصيلاً، أو مشرقياً وافداً.

ويمكن القول إن الشعر، وأعنى منه الزجل بخاصة، القناة الأولى التى تدفقت عبرها ملامح التأثير، فهو مادة الغناء، ووسيلة الترفيه الأولى في بلد لم يعرف المسرح، ولهذه الدواعى كان أكثر ألوان الفنون رواجاً، إلى جانب أن الزجل الأندلسى جاء في عامية أهله، وهى خليط من العربية واللهجات اللاتينية العامية التي كانت تتحدث في تلك الأيام، وكانت على نحو ما اللغة المشتركة بين سكان الأندلس كله، جنوبه الإسلامى، وشماله المسيحى، ويمكن القول نفسه، فيما يتصل بالغناء، وحتى بين سكان مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا، فليس شرطاً لكى تستمتع بالأغنية أن تعرف كل كلماتها بدقة. وكانت قرطبة عاصمة الخلافة، مهبط الراغبين من أمراء الدول المسيحية وأعوانهم، والأغنياء والتجار، يبحثون عن كبار الموسيقيين والمغنيين والراقصات لاحياء حفلاتهم في الزواج والانتصار، أو لتوشية قصورهم وحصونهم بالمغنيين والشعراء، ولا يخالج أى باحث منصف الآن الشك في أن الزجل الأندلسى وراء ازدهار حركة الشعر البروفنسالى في فجرها والتى حملت اسم شعر التروبادور، وشملت القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

• • •

مع الشعر نفسه، أو بعده بقليل، بدأت رحلة الحكاية العربية، ومع أننا، كما هو الحال فى الزجل أيضاً، نجهل الخطوات الأولى، لكننا لحسن الحظ نملك مع الحكاية وثيقة بالغة الأهمية، لا تتوفر لنا مع الشعر، تحدد الزمن الذى اتخذت فيه الرحلة طابعها كتابياً، وتشير إلى المكان الذى بدأت رحلتها منه، وعلى يد من تمت الرحلة.

أمّا المكان ففي مقاطعة أرغون شمال شرقي الأندلس، وأما الوثيقة فهي كتاب **تربية العلماء** وألفه يهودى أندلسي يدعى **موسى سفردى**، ولد عام ١٠٦٢م، ومات في تاريخ غير معروف، واعتنق الكاثوليكية في مدينة وشقة عام ١١٠٦، وحمل اسم **بطرس ألفونسو**، لأن تعميده تم في يوم عيد القديس بطرس، وكان في الرابعة والأربعين من عمره، وربما كان ذلك بتأثير من رهبان دير كلوني، وهم طائفة من رهبان الفرنسيين الكاثوليك المتعصبين، دخلت الأندلس في القرن الحادى عشر الميلادي، في مملكة أرغون أولاً، ومنها إلى بقية ممالك الشمال المسيحية، ومارست على الحياة فيها نفوذاً هائلاً، فنشرت التعصب النميم، وكانت وراء اضطهاد غير المسيحيين وجمع كلمة النصارى لمقاتلة المسلمين، وإذكاء روح العداوة والبغضاء ضدهم، والاستيلاء على مساجد المدن التى سقطت في أيدى النصارى وتحويلها إلى كنائس رغم كل المعاهدات التى وقعت مع المسلمين.

وقد تبناه **ألفونسو المقاتل** ملك أرغون وألف إلى جانب كتاب تربية العلماء كتباً أخرى في الفلك، واشتهر بكتاب آخر، جاء فى

شكل حوار، وفيه يدافع عن المسيحية فى مواجهة اليهودية، ولكن إقامته في الجانب المسيحى من الأندلس لم تستمر طويلاً، لأننا فيما بعد سوف نلتقي به طبيباً لهنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ — ١١٣٥)، وكان إلى جانب ذلك يتولى تدريس الفلك، وتميز من بين تلاميذه الفلكى ولتشر رئيس دير ملفون، ونقل إلى هناك الأدوات التقنية التى كان يستخدمها العلماء العرب مثل الاسطرلاب ومقياس الزوايا وغيرها. ويهمنا من بين أعماله كتابه تربية العلماء.

يمكن القول إن كتاب تربية العلماء أول ما ذاع فى أوربا المسيحية من القصص المستقى من أصول عربية، وتدل الدلائل كلها على أن المؤلف كتب كتابه باللغة العربية أولاً ثم ترجمه بنفسه إلى اللاتينية، لأن الأسلوب، وبناء الجملة، يحمل خصائص العربية ونسقها فى وضوح، وهو مجموعة من القصص العربية القصيرة، يختلف عددها من طبعة إلى أخرى، فأقلها ثلاثون، وأكثرها تسعة وثلاثون، وأعطاها العنوان الطموح الذى أشرنا إليه، ورغم أن كلمة «كلريكالس» تعنى في المفهوم المعاصر «الدينية»، لكن الرجل لم يرد بها هذا المعنى الذي يرد في الخاطر الآن، وإنما أراد بها معناها الذي كان رائجاً في العصور الوسطى، وهو «العالم» فى مواجهة العامة، لأنه بالكاد يحمل ملامح مسيحية إذا استثنينا المقدمة والعنوان.

ومع ذلك يمكن القول إنه توجه بكتابه هذا إلى رجال الدين بوصفهم الطبقة المثقفة الأولى على أيامه، وإلى العلماء في الدول

المسيحية، وكان واثقاً من أن الجو العربى الذي قدم فيه الكتاب لا يصدمهم، أو يثير فيهم النفوذ والاشمئزاز، وإنما على النقيض، يبدو لهم جواً مهاباً، وعالماً جذاباً، لما كانت عليه الحضارة العربية إذ ذاك من رقي وازدهار، ولم يدع ذلك لاستنتاج القارىء وذكائه، وإنما أشار إليه صراحة في مقدمة الكتاب فذكر أنه صنفه من أمثال العرب ومواعظهم، وحكم الفلاسفة، والخرافات التي على لسان الطير والحيوان مما كان شائعاً بينهم، وكل ذلك لكى يتذكر الرجل العالم، فى لطف، كثيراً مما كان نسيه، ويتربى، ويتهذب، ويتعلم.

ويتمثل الإطار العام الذى ضم هذه الحكايات الخرافية في أن والداً أسماه العربي دعا ابنه في لحظة احتضاره ليقدم له النصيحة، وكما هو الحال في معظم القصص العربية والمشرقية في العصر الوسيط، وفي الأمثال والحكم، تنطوى دائماً على معنى ظاهر غير مراد في كثير من الأحيان وعلى آخر خفي يلتقط من الفحوى، وأبعد من المعنى المباشر، وهو الذى تهدف إليه.

• • •

لم يدرس أحد بعد مصادر الكتاب منهجياً، وفى دقة وأناة ولكن المقارنة العاجلة بين حكاياته، وبين الكتب العربية التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية أو العبرية، أو اللغات الأخرى، فى القرن الذي عاشه بطرس الفونسو، وهو الثانى عشر الميلادي أو القرون التى تلته، يمكن أن تعيننا على تحديدها. ويمكن القول أن كليلة ودمنة فى مقدمتها،

فقد نقل عنه معظم الكتاب، ولا بد أنه قرأه فى اللغة العربية، لأن أول ترجمة لكليلة ودمنة في أوربا تمت في إيطاليا، وكانت إلى اللغة العبرية، وقام بها يهودي اعتنق الكاثوليكية يدعى **جويل**، وشاعت فى أول القرن الثانى عشر الميلادي، أي أنها كانت معاصرة لصاحب «تربية العلماء»، وعنها تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة اللاتينية فى إسبانيا، فى أواخر القرن الثالث عشر، وقام بها يهودي آخر اعتنق الكاثوليكية أيضاً، ويدعى **خوان دي كابو**، غير أن الإسبان عرفوها قبل هذا التاريخ فى لغتهم العامية، فى الترجمة التى أمر بها **ألفونسو العالم** ملك قشتالة عام ١٢٥١م، وهى أكثر دقة وأمانة، لأنها من العربية إلى القشتالية مباشرة، في صورتها العامية، قبل أن تصبح اللغة الإسبانية.

والمصدر الثاني لهذه الحكايات **كتاب السندباد**، وعبر إلى أوربا فى شكل حكايات مستقلة، قبل أن يصبح جزءاً من ألف ليلة وليلة، عن طريقين: أولهما غربي، عن طريق ترجمة يونانية، اعتمدت السريانية، التى كانت بدورها ترجمة لأصله العربي، وعرفت منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، أي عاصرت مؤلف كتاب **تربية العلماء**، وترجمت بعد عصره كاملة أو منقوصة إلى القشتالية، والعبرية، والقطلونية. والطريق الآخر مشرقي، وفيه ترجمت إلى اللغات الأوروبية عن أصول فهلوية، وفارسية، وعبرية، وإسبانية، وضاعت هذه الأصول كلها، ما عدا الأصل الإسبانى. وأمر بنقل هذه

القصص من العربية إلى الأسبانية **الدوق فدريك أخو ألفونسو العالم**، فنجزت الترجمة عام ١٢٥٣، وجعل عنوانها: **مكايد النساء وحيلهن**.

وصورة الكتاب فى أصله العربى، أو فى ترجمته الإسبانية، تضم ستاً وعشرين حكاية فحسب، تربط فيما بينها حكاية واحدة أساسية، على نحو ما فى ألف ليلة وليلة، وملخصها: أن فتى اتهمته زوجة أبيه بمحاولة اغتصابها، فقضى أبوه بموته. ولزم الفتى الصمت، وأجل تنفيذ الحكم سبعة أيام دارت المناقشات خلالها بين زوج الأب وسبعة من العلماء، ومضى هؤلاء يقصون قصصاً تدور حول مكايد المرأة وحيلها وشذوذ طبعها، وفى اليوم الثامن تنتهى المهلة التى كان طالع الفتى قد أنذره بشر مستطير ان تكلم خلالها، ويباح له الكلام، ويخرج عن صمته، ويظهر لأبيه الملك براءته، فيعفو عنه، ويلقى بزوجه فى النار.

وهى قصص سطحية، خفيفة، لا تبلغ حد الخبث الجاسي الذي نجده فى الخرافات الفرنسية، أو القصص الوقح الذي نجده عند القصاص الإيطالى **بوكاشيو**، ولكنها مع ذلك ذاعت ذيوعاً عظيماً، وترجمت إلى العديد من اللغات الأوربية، وسلكت طريقها فى القرن التاسع عشر إلى الاتجاه الرومانسى، وأصبحت تكون جانباً من قصصه، فى صياغة حديثة.

ويمكن أن نعد من أصوله أيضاً قصة **بولعام وبواصف** وهو كتاب تقبلته لغات كثيرة، وعقائد متنوعة، وكان دليل الحياة الزاهدة للبوذيين والمسيحيين والمسلمين واليهود، ولا يقف تأثيره عند الأسطورة الرئيسية فحسب، وإنما يتجاوزها إلى الأمثال الكثيرة التي تتناثر عبر النص، وتمس الكثير من جوانب الحياة. والأرجح أن القصة هندية، وسلكت طريقها إلى الفارسية، ثم إلى العربية، وقام بترجمتها من السريانية إلى الاغريقية راهب يدعى يوحنا، في مطلع القرن السابع الميلادي، في دير بالقرب من القدس، وعنه انتقلت إلى عدد من اللغات الأوربية، وبلغت إسبانيا في زمن مبكر، وقد ترجمها يهودي من برشلونة يدعى **إبراهام بن حسداي** إلى اللغة العبرية، في كتابه **ابن الملك والدرويش**، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وأضاف عدداً من الأمثلة لا توجد في الأصل، ووصلت إلى اللغة العربية في زمن قبل هذا، وعنها انتقلت إلى اللغة القشتالية، فنجدها في كتاب **الأحوال** الذي ألفه **خوان منويل** عام ١٢٣٢ وفي قصة **الفارس السفار**، وكتبها مجهول في الفترة نفسها، أعني مطلع القرن الرابع عشر الميلادي. ولكن الأصل الأندلسي الذي نقلوا عنه لما نعثر عليه.

والقصة في صورتها البدائية موجزة قبل ان يُلبسها أهل كل دين الثوب الذي يريدون. وموجزها أن ملكاً ولد له ابن، فتنبأ له حبر منجم بانه إمّا أن يبلغ مجداً خالداً، ويصبح ملكاً عظيماً، أو أنه سوف

يتنازل عن العرش، ويعتزل الناس فى صومعته، ويصبح بوذا. ومن هنا حاول الوالد بكل الوسائل أن يجنب ابنه الشق الثاني من النبوءة، فعزله فى حدائق قصره وأحاطه بكل المتع الحسية التي تحول بينه وبين الفكر والتأمل، وتشده إلى اللذات والبهجة، وتجعله يجهل حقيقة المرض والشيخوخة والموت، وتحجب بصره عن كل تعاسة في الحياة، ولكنه خرج يوماً من سجنه الذهبي، فإذا به أمام اللقاءات الثلاثة الشهيرة: الهرم المريض، وميت يحملونه إلى القبر، وزاهد شحات.

وتظهر في بعض فصول الكتاب أسماء **أفلاطون وسقراط وديوجين، والأسكندر الأكبر**، ولكن ذلك لا يعنى تأثيراً إغريقياً أو لاتينياً مباشراً، لأن هذه الأسماء معهودة لعرب العصر الوسيط، ويتداولون أسماءهم كثيراً، وأرجح الظن عندي أنه اعتمد فيما نقل عنهم على كتاب **مختار الحكم ومحاسن الكلم** لمؤلفه أبي الوفاء المبشر ابن فاتك، وعاش في مصر الفاطمية في القرن الخامس الهجري، والحادي عشر الميلادي، وهو أوفى كتاب في العربية استقصى أقوال الفلاسفة والحكماء في القديم على أيامه، ويشغل فلاسفة الإغريق مساحة عريضة من صفحاته، ورغم أنه يعود إلى نفس القرن الذي عاش فيه **بطرس ألفونسو** مؤلف كتاب **تربية العلماء**، إلاّ انه سبقه في الحياة وفي التأليف.

وقد نال كتاب **مختار الحكم** شهرة واسعة في حياة صاحبه، فيما يبدو، وكما سنرى، وتمت أول ترجمة له إلى اللغة الإسبانية، ووصلنا نصها، في عصر **ألفونسو العالم** (١٢٢١ــ ١٢٨٢م)، وترجم في الوقت نفسه إلى اللغة اللاتينية في إيطاليا، على يد **جوانس دى بروشيدا** (١٢٢٥ــ ١٣٠٢م) وكان طبيباً وحاكماً على جزيرة بروشيدا، ومتآمراً في السياسة، وعاش في بلاط **فردريك الثاني**، وكان حافلاً بمن يعرفون العربية، ويرجح الأستاذ **الدكتور عبد الرحمن بدوى**، أنه أتم الترجمة وهو مقيم هناك.

ولكن تأخر الترجمة لا يعنى أنّ إسبانيا لم تعرفه قبل القرن الثاني عشر لأن الترجمة تتــم عادة بعد أن يشيع الكتاب في لغته الأصلية بين من يعرفونها، ويتسع صداه بين من لا يعرفونها، وتصبح البيئة العلمية مهيأة لاستقباله مترجماً، والترحيب به، وأرجح أن الكتاب عرف قبل ذلك بكثير ولا أستبعد أن يكون ذلك في حياة مؤلفه في القاهرة، وأن **بطرس ألفونسو** أطلع عليه في أصله العربي، وأفاد منه، وهو ظن يرجح به، ويدعمه ما يذهب إليه العالم الفرنسى **جاستون باوى**، المتخصص في دراسات العصر الوسيط من أن هناك ترجمة بروفنسالية للكتاب، تعود إلى القرن الثاني عشر، جاءت منظومة في البحر السداسي، وقام بها من يدعى **بالدو** بعنوان **إيسوب الجديد**، وأنها تمت من أصل لاتينى سبق، كان ترجمة مأخوذة من الأصل العربي مباشرة.

• • •

لم يخف بطرس ألفونسو أن كتابه يقوم على أصول عربية، وكان واثقاً أن مثل هذا التصريح يعطى الكتاب مزيداً من الشعبية ورغم نفور رجال الدين منه ظاهراً، فلقد كانت الثقافة العربية على أيامه فى أوجها، في الأندلس وفي مصر، وفي المشرق على السواء. وهو لا يشير إلى المسيحية في ثنايا الكتاب، باستثناء المقدمة، وعنوانه في ترجمته الحرفية هو التربية الدينية ولكن كلمة الدينية لم يكن يقصد بها على أيامه رجال الدين من أحبار وقسس ورهبان وإنما كانوا يعنون بها ما تعنيه الكلمة الإنجليزية الآن من رجل عالم أو باحث أو أديب.

ويسمى بطرس نفسه «خادم المسيح» ويقول في المقدمة إنّه ألف الكتاب لكى يعرف المرء كيف يمضي حذراً فطناً في هذا العالم، على نحو أفضل، وبذا يأمن السلامة في الدنيا ويربح الجنة في الآخرة، ويرى من الضرورى أن يشير في آخر مقدمته إلى ملاحظة حذرة: «إنّ من يتصفح هذه الرسالة بعينى إنسان، ويأخذ بظاهرها فحسب، سوف يجدها شيئاً غير مناسب، وحينئذ أنصحه بأن يقرأها من جديد، بعينين أكثر نفاذاً وفطنة».

والحق أن أكثر هذه الحكايات أبعد من أن تبنى معها أخلاق، أو يُؤمل إصلاح، فست حكايات منها، هى أطولها ــ وتمثل خمس الكتاب تقريباً ــ تدور حول إظهار خبث المرأة ومكرها وخيانتها، وهو اتجاه ليس عربياً في أصوله، وإنّما يعكس خصائص الأدب الهندى، وقد وفد إلينا من هناك، وسلك طريقه إلى الأدب الشعبي في العالم

العربي، وهو جانب لمّا يدرس في تاريخنا الأدبى. ولا يقف بطرس عند هذا الجانب ملمحاً أو مشيراً، وإنما يفيض فيه ويطنب على ما سنرى، وبخاصة ما اتصل منه بالجوانب الخاصة بخداع الزوجة لزوجها والمكر به.

كان بطرس يدرك واعياً أنه يلتقط من الأدب العربي موضوعاً لا يرحب به كثيراً رجال الدين المسيحيين على أيامه، ويفضلون ألا يكتب أحد عنه وألا يجرى الحديث حوله، فقد كان المألوف بينهم أنهم يفضلون أن يديروا ظهورهم لما يجرى في الواقع، شائعاً أو نادراً، وأن يخلصوا جهدهم لما يجب أن يكون عليه الحال، ممكن التحقيق أو عسيراً، أو يدخل في دائرة المستحيل، وبخاصة أن بطرس لم يكن كاثوليكياً خالصاً، وإنّما يهودى أصلاً اعتنق المسيحية من قريب، مما يلقى عليه كثيراً من الشبهات، لأن عدداً كبيراً من يهود العصور الوسطى اعتنقوا المسيحية في أوربا تخلصاً من الاضطهاد، وهروباً من الملاحقة ورغبة في الأمن، وتحقيق غاياتهم البعيدة إلى جانب ما يهدفون إليه من تدمير هذه المجتمعات من داخلها.

وأياً ما كان فقد استخدم ثقافته العبرية السابقة ليحصّن بها نفسه في مواجهة أى اتهام يوجه إليه، فاتكأ على التوراة، وألبس حكاياته ثوباً أخلاقياً، وذكر بأن نبي الله سليمان لعن المرأة الشريرة، وفي الفصل الخاص بالأمثال السائرة، وأورده في آخر الكتاب، جاء باثنين وعشرين مثلاً في مدح المرأة الفاضلة. ومع ذلك فالكتاب فى

مجمله يتحامل على المرأة بقسوة لا مبرر لها، ويخرج القارىء منه، وهو على يقين بأن المؤلف يكره النساء، وأبعد ما يكون عن أمثال سليمان، التي تضع دائماً المرأة الفاضلة القوية في مواجهة المرأة الخبيثة الشريرة، ومن حق الأولى أن تجد من زوجها الحمد والشكر، ومن قومها الرعاية والتمجيد.

ولتكون لدى القارىء فكرة عن موقفه من المرأة، وعن طريقته الخاصة في القص، أقدم ترجمة حرفية للحكاية العاشرة من كتاب تربية العلماء وتحيىء مسبوقة بمقدمة وعظية بليغة، على طريقة العصور الوسطى، وحين يشعر القاص بأن الجمهور، قارئاً أو مستمعاً، تغشاه السأم واعتراه الملل، يلقى إليه بالحكاية، فيستعيد معها نشاطه، ويسترد اهتمامه، ويتابع القاص يقظاً متحمساً:

«ذهب رجل في رحلة إلى الخارج، وأوصى حماته بزوجته خيراً، وفي غيبته أحبت الزوجة رجلاً آخر، وأفضت بذلك إلى أمها، فأشفقت هذه على ابنتها، وساعدتها في حبها، ودعت حبيبها إلى وليمة معهم، وبينما ثلاثتهم يأكلون وصل الزوج فجأة، وطرق الباب، فأسرعت الزوجة وخبأت حبيبها في غرفة النوم، وفتحت للطارق فإذا بها أمام زوجها.

وما إنْ دخل الزوج من الباب حتى أمر بأن يعد له سرير نومه، فهو متعب من الرحلة جداً، فاضطربت الزوجة، ولم تدر ماذا تفعل، ولكن الأم توجهت إليها: لا تتسرعي يا ابنتي بإعداد السرير، قبله يجب أن يرى زوجك المفرش الجديد الذي طرزناه.

وجاءت العجوز بمفرش، ورفعته من أحد أطرافه، وأعطت الطرف الآخر لابنتها كي ترفعه، ومن وراء المفرش مرفوعاً بين الاثنين ليراه الزوج، هرب الحبيب المختفي، وهكذا سخرت من الزوج، وحينئذ قالت لابنتها: هيا، أفرشيه على سرير زوجك، ثم اتجهت إليه:

ـ لقد صنعناه معاً بيدي ويدها!

وقال الزوج:

ـ وهل تعرفين يا سيدتي كيف تصنعين مفارش جميلة مثله؟!

ـ آه يا بني!، مفارش كثيرة مثله صنعتها بيدي هاتين!

والقصة كما ترى موجزة، وسريعة، تهتم بالجوهر، ولا تقف عند التفاصيل.

• • •

هذه الحكاية بالذات اشتهرت أكثر من غيرها، وأخذت طريقها إلى المختارات القصصية في العصور الوسطى في كل اللغات الأوربية تقريباً، وظلت تتردد على نحو واسع في الشفاه والكتب حتى القرن الخامس عشر، وأشهر مجموعات الوعظ والخطابة، وأكثرها شيوعاً، والفت في إنجلترا وفرنسا في مطلع القرن الرابع عشر جعلت منها حكاية رمزية، فالرجل الذي رحل إلى الخارج هو كل مسيحي، لأن الحياة في هذا العالم الفاني رحلة إلى الآخرة، وامرأته رمز الشهوة والرذيلة، وعودة الزوج الغائب رمز «الندم والتوبة والصيام والصلاة»، والحماة السيئة رمز المعصية، تعمى الإنسان بمفرش العبث

والشهوات، وهكذا كل تفصيلات القصة أصبحت رمزاً لخدمة الوعظ الكنسي وسوف نلتقي بالحكاية نفسها يرددها ثرفانتيس، أديب إسبانيا الكبير (١٥٤٧ــ ١٦١٦م) في قصته «العجوز الغيور».

أما حكاية الشاب الغيران الذي يحبس امرأته في برج، ويغلق عليها الأبواب فتتركه في الطريق، وتأبى أن تفتح له الباب، فسوف تصبح موضوعاً محبباً إلى كثيرين من الكتاب فيما بعد، وسوف نلتقى بها في الحكايات الخرافية الفرنسية، ونجدها في مجموعة الصباحات العشر للأديب الايطالي بوكاشيو (١٣١٢ــ ١٣٧٥م)، وفي مشهد من مسرحية، جورج وندان للكتاب الفرنسي موليير (١٦٢٢ــ ١٦٧٣)، وانتقلت كذلك إلى المسرح الشعبي الإنجليزي، وبين دعاة المثالية بخاصة، كي يستخدمها رجال الدين المخلصين في تربية أتباعهم وتهذيبهم.

وثمة حكاية أخرى تدور حول الإخلاص في الصداقة حتى الموت، وبطلها تاجر من بغداد وآخر من القاهرة، ونجد صداها في كتاب الكوند لوكانور لمؤلفه خوان منويل (١٢٨٤ــ ١٣٤٨)، وهو حفيد ألفونسو العالم، ملك قشتالة الذي ازدهرت الترجمة من العربية في أيامه، وتحت رعايته وبتشجيع منه.

ونلتقي بمصر للمرة الثانية بوصفها حلقة اتصال بين مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، حين نجد حاجاً أندلسياً يُودع كل ثروته أمانة عند صديق له في القاهرة، وهو في طريقه إلى الحج. وأمّا الحكاية

السادسة فقد تناولت رسالة **أرسطو** إلى الإسكندر الأكبر، وتدور الحكاية العشرين حول طائر صغير يبحث عن الحرية، فيحتال على الفلاح بعبارات ذكية، حلوة عذبة، حتى يفلت من الأسر، وغيرها.

لقد كان **بطرس ألفونسو** جريئاً عندما أقدم على ترجمة الحكايات العربية دون أن يخفي أصلها، أو يلقي عليه ستاراً، وكان مراوغاً حين قدمها نموذجاً لأخلاق مسيحية، من سار على هديها ربح الآخرة. وبهذا جعل الكتاب مرجعاً هاماً لكل خطباء الكنيسة ووعاظها، يقتبسون منه، وكان ذلك مصدر نجاحه الذي لا يباري.

وإلى جانب ذلك لقي الكتاب بأجمعه إقبالاً شديداً من الناس عليه، وذاع في بلاد شتى، وترجم كله أو بعضه إلى العبرية، وكبريات اللغة الأوربية، كالفرنسية، والانجليزية، والألمانية، والإيطالية، والأندلسية والقطلونية. بل أن لهجات مغمورة، حظها من الأدب والثقافة متواضع جداً تملك ترجمة لهذا الكتاب المثير، مثل لهجة «بياران»، وهي مقاطعة صغيرة في جنوب فرنسا، تقع شمال جبال البرانس، على الحدود بين إسبانيا وفرنسا وقد تلاشت لهجتها الآن تماماً، وظلت مخطوطة الترجمة قابعة في مكتبة مدريد الوطنية، وظل الباحثون يعتقدون لزمن طويل أنها في اللغة القطلونية، ثم تبين أنها كتبت في اللهجة المحدودة الانتشار جداً.

• • •

لقد لقي الكتاب من إقبال الناس عليه، ومن ذيوعه في شتى البلاد واللغات ما تحسده عليه الكتب الكبرى. لأنّ القراء وجدوا فيه حكايات صيغت في جنس أدبي جديد، كان مجهولاً لهم تماماً، ولم يتخلف عنه من الأدب الإغريقي أو اللاتيني شيء يستمتعون به أو يقلدونه، وسعدوا بحكايات تصور عالماً جذاباً في غرابته وطرافته، وتقوم المسؤلية فيه على أساس من المزاج العربي والفلسفة المشرقية. ومن المؤكد أنّ الإقبال عليه كان شديداً للغاية لأن الناشرين المحدثين عندما قرروا طبع الكتاب وجدوا بين أيديهم قرابة ستين مخطوطة له، تعود إلى عصر لم تكن فيه أوربا تعرف المخطوطات على هذا النحو أو تعنى بها، وكان تداولها وقفاً على رجال الدين، وهم الذين يقرأونها ويتداولونها، وكانت مخطوطات الكتاب موزعة على خريطة أوربا كلها، من برشلونة في إسبانيا حتى كركوف في بولندا، ومن روما في إيطاليا إلى أوبسالا في السويد.

وسبق كتاب **تربية العلماء** بقية المؤلفات العربية الأخرى، مثل **السندباد وكليلة ودمنة**، في الترجمة والتأثير، وكان أعلى صوتاً من بقية المجموعات الأخرى، وكالأغنية تماماً، اجتاح الحواجز والحدود بلا صعوبة، وانتشر بلا عوائق، وبعضهم أخذه كلا، فقد ضم **سانتشيث دي فرثيال** مادته إلى مؤلفه **كتاب الأمثال**، مع تغيير في ترتيب الحكايات فحسب، ونجد الجانب الأكبر منه في كتاب **ايزوبيت المؤرخ** الذي أمر بترجمته الأمير **دون إنريك**، دوق شقرب،

ونائب الملك في أرغون، وكان تقليداً لمجموعة لاتينية قام بها الألماني شتينهوفل، ظهرت طبعتها الأولى في تاريخ نجهله، ولكنها على أية حال لا يمكن أن تذهب إلى أبعد من عام ١٤٧٤م.

وتتبع الذين نقلوا عنه، أو تأثروا به، فوق طاقة مقال واحد، لأن صداه لا يقتصر على كبار الكتاب وحدهم، وإنما نجده عند كثيرين مغمورين، بعضهم أخذ عنه نصاً، وآخرون طوروا حكاياته لحسابهم، وقلدوه في بنائه الفني، فهو يسلك الإيجاز في قصصه، ويعني بالربط الذكي بين تفصيلاتها، وخارج هذا قلما يعني بالشكل ويستطيع أي قارىء، أو قاص آخر، أو ناسخ أنْ يضع القصة في النطاق الذي يريد، فأعانه هذا على أن يتكرر وينتشر ويصبح مغنماً للاقتباس والتقليد.

وكما شاع في العصور الوسطى مخطوطاً، توالت طباعته في العصر الحديث وظهرت طبعته الأولى في الحدود الفاصلة بين العصرين الوسيط والحديث فطبع في إسبانيا عام ١٤٥٩م، ولمّا يزل المسلمون في غرناطة يقاومون في استماتة الحصار الذي ضربه عليهم ملكا أرغون وقشتالة، وسوف يستسلم السلطان، وتسقط الدولة، ولكن المسلمين ظلوا مواطنين من الدرجة الثانية إلى ما بعد السقوط بأكثر من قرن من الزمان.

وطبع النص اللاتيني مصحوباً بترجمة شعرية فرنسية تمت في القرن الرابع عشر عام ١٧٦٠م، وحملت عنوان **وصية والد لولده**.

وطبعته مرة ثانية جمعية محبى الكتاب الفرنسية عام ١٨٢٤ ، النص اللاتينى مصحوباً بالترجمة الفرنسية النثرية التي تمت في القرن الخامس عشر الميلادي ، وصدرت بعنوان : تربية العلماء .

وطبع النص اللاتيني في برلين عام ١٨٢٧ ، وهو أكثر دقة من الطبعة الفرنسية وحمل عنوان الكتاب الأصلى تربية العلماء .

أما طبعات الكتب التي اقتبسته ، أو تضمنته إلى جانب مواد أخرى ، فكثيرة ، ويتطلب حصرها بحثاً مستقلاً .

التروبادور
شعراء أوربيون تأثروا بالشعر العربى

ما إن نعبر الألف الأولى للميلاد، ونضع أقدامنا على الشاطىء الأوربى من البحر الأبيض المتوسط، حتى نلتقى بشىء مبهم وغامض يعتمل فى أعماق الناس، يحاول أن يشكل نفسه وأن يترجمها إلى واقع، لكن الظروف وما حوله ليست مواتية تماماً، ومن هنا سوف يبطىء به الزمن قروناً أخرى، قبل أن يصبح ما سمى بعصر النهضة المشرق، ولكنه كان البداية على أية حال، كان الخطوات الأولى على هذا الطريق الطويل.

كانت أوربا يومها تنعم بجهل مريع، نسيت تاريخها، واستقرت ثمرات فكرها القديم، من يونانى ولاتينى، فى مخطوطات مجهولة فى أديرة الرهبان، لا أحد يعرف عنها شيئاً، وليس ثمة من يستطيع أن يفك طلاسمها، أو يفهم نصها، أو يفيد من محتواها. فالرهبان وحدهم يعرفون القراء والكتابة، وهم ينفقون وقتهم فى نسخ الصلوات والأدعية، ولم يكن بينهم من يستطيع أن يقرأ بفهم، وأن يفكر مبدعاً، لأن الابداع يتطلب حرية الضمير، وكانت ضمائرهم مثقلة بالجهل والاثم والخرافة.

وكانت اللاتينية، وعاء أدبهم وثقافتهم، والصلة بين المبدع والمتلقى، قد فسدت وتفسخت، وبدأت كل جماعة فى أوربا تتكلم اللاتينية على هواها، تستجيب للسهولة ــ والانحدار أسهل فى كل شىء! ــ وتذهب بها حيث تشاء، صوتاً وقواعد وتركيبا، فتحولت إلى عدد من اللغات، سوف تأخذ فيما بعد اسم اللغات اللاتينية الجديدة Néolatin أو اللغات الرومانثية Romance واستقرت هذه اللغات فى جنوب أوربا، بينما استقرت اللغات الأخرى فى الشمال، وسوف تتطور لغات الجنوب لتصبح الإيطالية والفرنسية والبروفنسالية والقطلونية والإسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا.

وكان نتاج العصر إمّا بطولى يمجّد الحرب ضد المسلمين، أو تربوى يهدف إلى نظم المعارف، والعقائد من بينها بخاصة، أو دينى يمجد حياة القديسين، ولم يكن لهذه الألوان كلها أية صلة بالواقع أو الحقيقة، إنما كانت مجرد كلام ركيك ورتيب ومعاد.

لقد حالت العقيدة المسيحية دون ازدهار الأدب، حتى ما كان منه أسطورة، إلاّ إذا ارتبط بالقديسين ومعجزاتهم. وكان الأوربيون إذ ذاك يرون فى القوة العليا الخالقة والوحيدة شيئاً بالغ البرودة، غير جذاب ولا محبوب، ولا يفهمون أن يكون لهم جميعا نفس الإله، وهم يختلفون اجتماعيا وحياتيا إلى حد كبير، ومن هنا كان القديسون، وهم كثيرون لا حصر لهم، ومخلوقات حية تتحرك بينهم، مناط الخرافة وهدفها، فاستقرت فيهم، وركزت على أعمالهم، صنعت لهم خوارق

ومعجزات، وأنشأت حول كل واحد منهم ديانة صغرى تتصل به، واستطاعت فى أحايين كثيرة أن تكسف نور الإله الأب، وكان ما أطلق عليه اسم الوثنية المسيحية، وهى رغم جانبها العقائدى والفكرى المظلم، استطاعت أن تخرج الفكر من الرتابة التى كان يدور فيها، وأن تنوّع الأدب، وأنْ تدفع بالدم أحمر قانيا فى الوجود الشاحب، وأن تقدم الأمل حلوا وعريضا لمن ملّوا الحياة فى ليل الشتاء الطويل الذى عاشته أوربا، من القرن السادس الميلادى (الأول الهجري) حتى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى). نعم، كان عالم القديسين الأسطورى سهلا ومريحا، فى مواجهة الواقع الحى أليماً ومحزنا، واحة من الأحلام المخدرة، يأوى إليها الضعفاء والمقهورون، يتسلحون بالأمل، سلاحهم الوحيد الممكن فى مجتمع قوى وعنيف ومستبد.

ولم تكن أوربا العصر الوسيط دولة، وإنما جزراً متناثرة من الإقطاعيات، الصغيرة والكبيرة، على رأس كل واحدة سيد مالك، معه رجال الدين، وحوله النبلاء والفرسان، يعملون بأمره، ويعيشون على خيره، ومن ورائهم قطاع عريض من الجماهير التعسة، دخلت التاريخ تحت اسم: «رقيق الأرض»، ملتصقون بها، ويعملون فيها، ومالكها مالكهم، ليس لهم كيان مستقل، لا يتحركون ولا ينتقلون ولا يتزوجون ولا ينجبون إلا بأمر السيد، وله حق سجنهم وبيعهم وقتلهم إذا أراد!.

ولأسباب يعرفها علم الاجتماع كانت مناطق الجنوب، أو إقطاعاته إذا شئنا الدقة، أسبق أملاً فى تغيير هذا الواقع، أو على الأقل فى الخروج من أسره القاتل، فازدهر فيها مبكراً مايعرف «بحضارة الشمس»، أى حضارة المناطق التى كانت أكثر دفئا من غيرها.

وكانت مقاطعة «بروفانس» فى جنوب فرنسا أولى هذه الإقطاعات إزدهارا، وكانت لغتها البروفنسالية أشهر اللغات الرومانثية، وموقعها الجغرافى يجعل منها نقطة اتصال حضارى لا بين اللغات الرومانثية أو الشعوب اللاتينية فحسب، وإنما بينت الحضارتين الإسلامية والمسيحية أيضا فقد كانت جغرافيا على حافة الاندلس الإسلامى، ذات امتداد واسع، أكبر حتى من مملكة فرنسا نفسها فى ذلك الوقت، تمتد فى الشمال من اللوار Loire حتى جرون Garrone، وتهبط جنوبا حتى جبال البرانس، وشهدت أول ازدهار أدبى لايتخذ اللاتينية لغة له، وشغل هذا الازدهار قرنين كاملين من تاريخها، من مطلع القرن العاشر حتى عام ١٢١٠م، وكانت تدين فى ذلك لطائفة من الشعراء دخلوا التاريخ تحت اسم التروبادور Troubadour.

• • •

لم يكن التروبادور بداية هذه النهضة الحقيقية، وإنما كانوا قمتها، وهم لم يصدروا عن فراغ، وإنما جاءوا تطورا لحركة أخرى بدائية،

غمرت هذا الجانب من الأرض، بفعل الحضارة العربية فى الأندلس، وعرف أصحابها باسم «الجوالين» Jongleures ، وهى كلمة من العسير تحديد ما يراد بها فى الآداب اللاتينية، لأن معناها فى العصور الوسطى كان واسعا وعريضا. فهى مأخوذة من كلمة Locularis اللاتينية، ومعناها «المسلّى»، وتطلق على الرجل الذى كان يسلّى الملك أو عامة الشعب. وكان هؤلاء «الجوالون» من أصل جرمانى، ويذهبون من بلاط إلى بلاط، ومن سيد إلى سيد، ينشدونهم الملاحم التى تدور حول مغامرات الأبطال وشجاعة الفرسان. وفى القرن الثالث عشر كان الأمراء والسادة يطلقون كلمة «جوال» على طبقة معينة، وعامة الناس يقصدون بها طبقة أخرى، وكانوا أخلاطاً من الناس تجد بينهم الشرير المستهتر، ومن ينتزع منك التقدير والاحترام، على حين كان القانون يعتبرهم دائما أناسا سيئى الأخلاق.

كان معنى الكلمة فى الحقيقة واسعاً، فضفاضاً يشمل التعساء المحرومين، والصعاليك الظرفاء، والطلاب الفقراء، ورجال الدين الصيّاع، والسكارى المعربدين، وكل الذين جاءوا إلى الحياة محرومين من الثروة والجاه، ويملكون نهبا فنيا، وينفقون حياتهم أحرارا، يكيفونها وفق الضرورات التى يواجهونها، فهم يربحون لقمة العيش من إضحاك الآخرين والترفيه عنهم، يريحون أعصابهم بالموسيقا والأدب والظرف، ويمتعون وقتهم بالحركات والألعاب والشعوذة.

ولكن «الجوال» لم يكن دائما متسولا، ولا رجلا فقيرا فى كثير من الحالات، وأحيانا نجده فى وضع اجتماعى مرموق. وكان بينهم الصعلوك الظريف، ومن يغنى فى الشارع، أو يمثل فى المسارح، أو ينشد الشعر فى الكنائس، أو فى قلاع الملوك أوقصور السادة، والراقصون ومؤلفو الرقصات، وكل من يقومون بالألعاب والتسليات المرحة، من تقليد أصوات الطير والحيوان أو لوازم أصحاب العاهات وفيهم الثرثار الذكى، وصاحب النكتة اللطيفة، والمهرج الخفيف، وعازف الموسيقا، وشاع من أدواتها: الناى والبوق والمزمار والقيثارة والقانون والرباب، ومن يقرع الطبل أو يضرب الدف، وكان هؤلاء أدنى طبقة من الآخرين.

كان الشاعر الجوال اذن يزاول أشياء كثيرة، يعزف الموسيقا، ويغنى الملاحم، وينشد قصائد الغزل، وينظم الشعر أحيانا، ولكنه فى الوقت نفسه مهرج مشعوذ يضحك الجماهير، ومن يكتب عملا أدبيا لا يعتبر «جوالا» إذا لم ينشده علانية، فى مكان عام، أمام جمع من السامعين. وبين الجوالين من وقف حياته على رواية شعر البطولة، ومغامرات الفرسان، ومعجزات القديسين، فكانوا موضع الرضا والتشجيع من رجال الدين. وفيهم من اقتصر على الشعر الغنائى، والعاطفى منه بخاصة، يغنيه قصصا ملونة، أو مغامرات جذابة، يصبى الشيوخ، ويثير الشباب، ويرفع من حرارة الحب عند الجميع.

وإذا كان بين الشعراء الجوالين من يتردد على القصور، ومن ينتقل من بلاط إلى آخر، فقد كان منهم الموظف المقيم، الملحق بحاشية الملك أو السيد أو الأمير، يتقاضى راتبا ثابتا، ومهمته أن يسليهم بأرقى مهاراته وأدناها، وما تدرج منها بين السمو والانحطاط. وكان غرام الملك وكبار رجال الدولة بهذا الفن مثار الشكوى الدائمة، لأنه أخطر ما يغرم به إنسان مسؤول، فقد جعلهم ينسون واجباتهم العامة تماما. وكان الشاعر الجوال يتمتع، موظفا أو عابرا، بتوقير كبير من الملك أو الأمير أو الإقطاعي ومن حولهم، ويسفر لهم أحيانا، فقد كان من أشد وسائل النشر فاعلية وتأثيرا فى الرأى العام، ومن ثم أخذ كبار رجال الدين وكبار المطارنة ورؤساء الكنائس يزاحمون الملوك والساسة فى هذا الاتجاه، فكان لهم شعراؤهم الجوالون أيضاً، وتعكس وثائق العصر سخطاً مريراً لشعراء مثقفين يقرضون الشعر باللغة اللاتينية ولكن الكنيسة، واللاتينية لغتها، وبين رجالها تعيش، أوصدت أبوابها فى وجوههم، على حين ترحب بالشعراء الجوالين، وتسخو عليهم فى العطاء، ولم يتردد صغار رجال الدين فى تقليد كبرائهم، وأسرفوا فى اتخاذ هؤلاء الشعراء فأصبح الأمر موضع النقد الشديد، واضطرت المجامع الدينية أن تحرم هذا العمل، وأن تشدد عليهم فى النكير. واتسعت دائرة الشاعر الجوال فكان للبلديات شعراؤها، ولكبار شعراء التروبادور ــ فيما بعد ــ شعراؤهم أيضاً، وكثر عددهم، وزادت مرتباتهم، فكان الملوك يهبونهم القصور والضياع، ويعفونهم من الضرائب والالتزامات، وأحيانا يتلقون مرتباتهم من

البلديات قمحا أو شعيرا أو ملابس أو نبيذا، أو قدرا من المال. ومع زيادة العدد، وكثرة الدخل، أصبحوا فى عدد من المدن يكونون طبقة برجوازية متماسكة.

• • •

وقد يقنع الشاعر بعد أن ينتهى من إنشاد الملحمة أو القصيدة بسؤال سامعيه شيئا متواضعا: أن يأمروا ساقى الحان يقدم له شيئا من النبيذ، أو يهبونه كسوة، إذا لم يكن فى جيوبهم شىء من المال، وعندما يبلغ الطرب والإعجاب بالفارس غايته، كان يتنازل للشاعر عن جواده أو بغله، وكان امتطاء هذا الجواد خلال رحلته أعظم شىء يطمح إليه، لأنه يزيد من قدره، ويرفع من قيمة الهدايا التى تقدم إليه، وكان تقديم الملابس أكثرها شيوعا، والأسلحة أقلها تقديما، وقد تطرح الملابس تحت قدمى الشاعر زيادة فى الإعجاب به، وأحيانا تبلغ من الكثرة حداً يجعل حملها مصدر ضيق له، ومن غلو الثمن حدا يجعل منها ثروة. وهو أمر كان يثير رجال الأخلاق فى العصور الوسطى، ويرون فيه بذخا يدفع الشعراء الجوالين إلى التغالى فى رذائلهم، والإسراف فى المعاصى التى يرتكبونها علانية. والحق أن طبقات المجتمع كلها كانت أسيرة هؤلاء الشعراء، تدفع لهم راضية، مهما كان مستوى الدخل الذى تعيش فيه.

ومن الشائع فى التراجم البروفنسالية أن نجد سيدا يعطى كل أثاث بيته لشاعر جوال استلطفه، وقد بلغت ثروات بعضهم

يكفى لاثارة الغيرة فى صدر بعض الملوك والأمراء والفرسان، ولو أن الشعراء كثيرا ما كانوا يفقدون ثرواتهم وضياعهم، مهما ربحوا، فهناك الحانة حيث يشرب، وبيوت الخناحيث يتردد، وحلقات اللعب حيث يقامر، وهى رذائل كانت منتشرة وكافية لتجعل من أى شاعر جوال مفلساً. وبدهى أننا نتحدث عن الكثرة الغالبة، لأن هناك من يعرفون دائما من بينهم، كيف ينمون أرباحهم فيشترون البيوت، ويملكون الضياع، ويختمون حياتهم باقامة مؤسسات خيرية تكفيرا عما ارتكبوه من آثام.

كان الشاعر الجوال يزاول مهنته فى أى وقت، فى الساعات العادية أواللحظات الممتازة، تبعا للبرنامج المعد، وخيال الشاعر، ومكانة المحتفل، ولون المناسبة. والشاعر الجوال، إلى جانب الخورى، الشخصية الرئيسية فى أى حفل يقام للزواج، وكلما كان عدد الشعراء كبيرا كان ذلك شاهدا على عظمة الحفل، ورفعة شأن أصحابه. وقد يغنى الشاعر فى غير حفل، عند تناول الأمير طعامه، أو استرخائه على فراشه، فالعادة أن يلبى الشاعر أية دعوة توجه إليه، حتى ولو لم تكن ثمة مناسبة عامة. وهو يغنّى فى بدء المأدبة، وعند نهايتها، ومن المهين لأى أمير أن يغلق قصره فى وجه أى شاعر جوال يصل ساعة تناول الطعام. وفى مثل هذه المناسبة فإن أغانيه تكون عادة ملاحم تاريخية، أو عن بطولات حربية، أو عن التلاقى بالسلاح بين الفرسان. ولقد تكون مائدة السيد أو الإقطاعى، أو من يتشبث

بمستواهما الاجتماعى، بسيطة متواضعة، لكنها لابد أن تضم بعض الشعراء الجوالين، لأن افتقادهم عمل شائن يمس كرامة صاحب الطعام.

ونجد الشاعر الجوال فى الحفلات الدينية أيضا، منشدا وعازفا ومغنيا، ومنهم من ينتهى به الأمر إلى أن يصبح شاعرا جوالا دينيا، إنْ صح التعبير، فيقتصر نشاطه على الكنائس، أو على الجماهير الفقيرة دون أن ينتظر منها شيئا، وأناشيد مثل هذا الشاعر تكون دينية عادة، ويشاركه فيها القسس والرهبان، مرددين وعازفين ومنشدين. لكى ينبغى ألاّ نفهم من تدينهم هذا أنهم كانوا أتقياء دائما، فقد شكا بعض المؤرخين ورجال الدين من أن حفلات القديسين التى يحضرها هؤلاء الشعراء لا يقضى الناس لياليا مصلين خاشعين، وانما فى الغناء وترديده، والموسيقا وسماعها، وفى مثل هذا الجو تصبح المواعظ الدينية ثقيلة على قلوب الناس. وأيا ما كان الأمر، فقد كانت الكنائس، متعللة بأية مناسبة دينية، تبحث عن هؤلاء الشعراء، وفى مرات غير قليلة تغدق عليهم العطاء.

وكانوا يصحبون السادة وسيداتهم فى الرحلات ليغنوا لهم عبر الطريق وعند التوقف، ليقطعوا عليهم رتابة السفر، مع مدربى الكلاب والصقور. ويمضون مع الجيوش إلى الحرب، يدقون الطبول، وفى مقاطعة بروفانس بالذات، وعلى نحو خاص فى المرحلة الأولى من الحرب، كانت مهمة الشاعر تختلط تماما مع مهمة الجندى. وهم

مع الجيش ينشدون القصائد الغنائية، ويعزفون الموسيقا المبهجة، ليبثوا روح العناد بين الجنود، وكان يقال في الأمثال: «هذا الجيش عائد يهمهم بلا أغان كما لو كان مهزوما في ساحة القتال». وأحيانا يؤتى بهم إلى جوار أسرة المرضى لمواساتهم، أو الجرحى للتخفيف من آلامهم. وفي وسع الشاعر الجوال بفنه المقتدر أن يجعل الأدب والموسيقا يبلغان قمة المتعة، بهما ينزع الحزن من القلوب الكليمة، ويحيي الأمل في العزائم المنهارة، غير أننا لا يجب أن ننسى أبدا أن هؤلاء الشعراء يحملون حياة شخصية متناقضة، فهم أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين.

وإلى جانب الرجال نجد النساء أيضا، وعلى نحو خاص في القرن الثالث عشر، وحدهن أو مع الرجال، في قصور الملوك أو قلاع السادة، أو أفراح الجماهير، يعرضن فنونهن المختلفة، وهن مثل حي للمرأة الصايعة، تربح حياتها بما يدفعه الجمهور لها. وكان بينهن، على نحو ما كان شائعا في العصور الوسطى، من يقدمن للجمهور الغناء والرقص وأجسامهن أيضا، ويأتي ذكرهن في أخبار القرن الثالث عشر على أنهن شاعرات جوالات، ويشير إليهن الشعراء على أنهن سيدات مرحات، دون أن يعرضوا لما يقدمنه تفصيلا، ربما لأن فنهن كان ثانويا في حفلات القصور بالنسبة لما يعرضه الرجال، وأحيانا كان يطلق على الشاعرة الجوالة اسم «المؤجرة»، أي التي يؤجرها تابعها، زوجا أو رفيقا أو صديقا، ليربح من ورائها شيئا.

ومنذ هذا القرن أيضا نلتقى بالعميان داخل نطاق الشعراء الجوالين، يكونون طبقة متميزة، يتجولون بقيادة صعلوك، ينشدون ويغنون ويطلبون الصدقات، خبزا أو مالا أو شرابا أو ملابس، وليس هذا مما يطلبه المتسولون عادة، إنّما يرتفع بمن يطلبه إلى مرتبة الشاعر الجوال، وكانوا خير من يقص حكايات البطولة القديمة ويغنيها.

وقد عرف الشاعر الجوال بالشغب والسكر والعربدة واللصوصية واحتقار كل ما هو محترم، عرفا أو قانونا، رغم أنه كان يتمتع بالفكاهة الظريفة، والصوت الرهيف، والذاكرة القوية، والقدرة الفائقة على أن يترجم بنبره معانى القصيدة مجسمة، وأن يلتقط ما يريد المؤلف من هدف بعيد وخفى، فيقدمه للسامع قريبا وواضحا، لكن مواهبه مهما بلغت كانت تتقهقر دائما أمام رذائله، فكان يزداد كل يوم انحطاطا، ولم يأت النصف الثانى من القرن الرابع عشر حتى ترك الغناء، وعزف عن إنشاد الشعر، وقصر نفسه على الموسيقا، وارتبط اسمه بالحطة والضعة ارتباطا وثيقا فألغى من معاجم القصور.

هكذا تقدم لنا الوثائق الشاعر الجوال: سكيرا عربيدا مقامرا غير كريم، على استعداد لأن يتقبل كل الإهانات، فهل كان فنه فى مستوى أرفع من تقاليده؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عليه.

• • •

الرحلة إحدى الخصائص الجوهرية للشاعر الجوال، وتعنينا فى التاريخ الأدبى على نحو خاص. وعلى نحو ما كان يفعل الشاعر

العربى، حين يجيء إلى القاهرة، أو يذهب إلى الأندلس، أو ينتقل بين القبائل أو الدويلات، طلبا للشهرة أو الثروة أو المتعة، أو بحثا عن جمهور جديد، كان يصنع الشاعر الجوال. وهو فى رحلته ينشر المطوى من الآداب والخرافات، ويشيع الجميل من الأنغام، بين المقاطعات والإمارات والممالك المختلفة، المتناثرة فى جنوب أوربا. لقد كان هناك أربعة من المثقفين فى العصر الوسيط يتعاونون على جعل الأدب عالميا: التاجر، ورجل الدين، وطالب العلم، والشاعر الجوال.

كان الشاعر الفقير يرحل على قدميه، وفى لحظات طارئة غير مستقرة، كان يملك دابة، والعود كل ما يحمل معه من متاع، وكان أكثر الآلات الموسيقية استخداما، ومخطوط يضم القصائد التى يغنيها، وعادة يكون صغير الحجم، متآكل الجوانب، متواضع الكتابة والزخرفة والتجليد، وهو يرحل على امتداد المنطقة كلها، وكان العميان أكثر من غيرهم رحلة، وربما طاف أحدهم جنوب أوربا على امتداده بقصيدة واحدة يتعيش منها. أما الأغنياء فكانوا يملكون ما يركبونه، حصانا أو بغلا أو حمارا، وكلهم، الفقراء والأغنياء، يبحثون عن جمهور يستمع، فى الأسواق والشوارع والميادين، وآونة فى قلاع السادة وقصور الأغنياء.

وعرف الشعراء الجوالون بالعيافة، فهم يتفاءلون ويتشاءمون، يزجرون الطير ويستقرئون النجوم، ويستهدون مطالع الفلك. واستقبال

الشاعر بالترحيب شيء تفرضه العادة، بين الشعب أو عند السادة، فلا يجهد نفسه لحظة وصوله إلى مكان في البحث عن مأوى ينزل فيه، فالناس جميعا يعرفون أنه يحمل معه من البهجة والمتعة ما يقطع رتابة الحياة في أي بيت يمضي الليل فيه، والذين يقصرون رحلاتهم على الملوك يظهرون أمامهم عادة وهم يحملون رسالة توصية من فارس، أو من عند شاعر تروبادور، أو من نبيل صديق، وحتى الشعراء الجوالون الذين كانوا يؤدون مهمتهم موظفين ثابتين كانوا يرحلون إلى أراض أخرى، استجابة لدواعي مهنتهم، وبحثا عن المزيد من الشهرة والمعرفة والتجربة.

هذه الرحلات المتواصلة أعطت فنّ الشعراء الجوالين طابعا عالميا سمحا، يأخذ ويعطي، يؤثر ويتأثر، وكانوا دون ما ريب أداة فعالة لتبادل الآداب بين المناطق المتعددة، ذات اللهجات المختلفة، فعوضوا العالم اذ ذاك عن الكتاب والمطبعة، وكانت رحلة الشاعر إذ ذاك أكثر تأثيرا من أيّ شخص آخر، لأنّ فنه يُسمع ويُفهم دون حاجة إلى معرفة جيدة باللغة التي يُغنى فيها، وإنّما يكفي الإلمام بها، أو حتى دون معرفتها، ولم يقف دور هؤلاء الشعراء عند ربط المقاطعات ذات اللهجات المختلفة، والتمكين للغة أدبية واحدة تفرض نفسها على الجميع، وإنّما تجاوزوا هذا الهدف، وهو بحد ذاته جليل وخطير، إلى تقريب الأذواق، وإشاعة الشعر، إنّهم حين يرحلون من قصر إلى قصر، ومن سوق إلى سوق، يصنعون باللغة والشعر والفن ما تصنعه بها الإذاعة الآن.

كان الشاعر الجوال ينشد الشعر الغنائى ويرويه، فإذا طمع أن يكون «تروبادور» أخذ يقرض الشعر لنفسه، وهؤلاء الشعراء جوالين أو تروبادور كانوا يؤدون الدور نفسه الذى اضطلع به الشاعر الجاهلى من قبل، إثارة ومدحا وتمجيدا، وقد ذهب الشاعر الجوال البروفنسالى Marcabru إلى الأندلس عام ١١٣٥م، ومدح **ألفونسو السابع**، واستمنحه جوائزه، ولعله ألف وهو فى قشتالة Castilla قصيدته Le Chant du Voir و يدعو فيها إلى الحروب الصليبية، ولما عاد إلى بروفانس أخذ يستثيرهم للذهاب إلى الأندلس لقتال المرابطين دفاعاً عن المسيح.

• • •

بدأ الشعراء الجوالون يغنون لحظة انهيار المسرح اللاتينى، وعندما بدأت اللاتينية تتراجع فى ألسنة الجماهير، فكانوا أول من واجه محنة الأديب حين يتحدث إلى جمهوره بلغة لا يفهمها، وأول من أحس بالحاجة الملحة إلى الإنشاد والغناء باللغة المشتركة للسامعين، وهكذا يقترب شيئا فشيئا من العامة، ولابد أن يكون قد مضى وقت طويل قبل أن يتمكن هؤلاء الشعراء من أن يجعلوا اللغة اللاتينية غير المفهومة قريبة إلى أذهان السامعين، يمزجونها شيئا فشيئا بكلمات وتعابير من اللغات الشعبية، عائلية أو حياتية أو أدبية، حتى انتصرت هذه أخيرا وقضت على اللاتينية نهائيا. وبذلك حقق الشاعر الجوال انتصارا حاسما فى المجال الأدبى، لقد شق بشعره الرومانثى طريقه إلى قصر

السيد، وفناء الكنيسة، وعرصة السوق، ورحبة الميدان، وامتداد الشارع، وحطم الأسوار الحاجزة بينه وبين وجدان الجماهير، وهى القطاع الأكثر عددا واتساعا فى العصر الوسيط، وجعل لغتها مركبا لفنون من القول عالمة وراقية، وقادرة على أن تخلف اللغة اللاتينية، فى الوقت الذى كان فيه الكاتبون بهذه اللغة محاصرين وضائعين، سجناء لغة ميتة، بلا جمهور ولا ثقل ولا تأثير.

لقد ولدت الآداب الحديثة على يد الشعراء الجوالين، جاءت إلى الحياة والجماهير غايتها، واستمرت لقرون عديدة أدبا عاميا ويتجه إلى العامة، وابتدعها أناس ممتازون، رغم أنهم كانوا يعيشون فى أوساط ذات ثقافة منحطة، بعيدة عن اللغة العالمة، ومع ذلك فلم يكن الشعراء الجوالون من الجهلة، ولا يمكن أن يكونوا، حتى ولو جهلوا اللغة اللاتينية، وبالتالى القراءة والكتابة، فقد كان على كل واحد منهم فى ظروفه وقدراته ومحيطه، أن يرتفع إلى مستوى أستاذه ومهنته. نعم، كان جمهوره بدائيا لا يعرف اللاتينية، أميا لا يعرف القراة، متفاوت الثقافة، متعدد الذوق، وهى عقبات لا تقلل من قيمة شعره أبدا، لأن المسرح المعاصر، وهو فى قمته، يتجه إلى جمهور يختلف ذوقا وثقافة وعمرا، على نحو أوضح مما كان عليه جمهور العصر الوسيط.

كانت القصائد التى يتغنى بها الشاعر الجوال تتعرض للتهذيب والتنقيح، سواء أكانت من تأليفه أو اشتراها أو مسروقة أو منسوخة لأن الجمهور تواق دائما لما هو جميل ولطيف وطريف، وعلى الشاعر

لكى يحتفظ بمكانته أن يكون قريبا من قلوب سامعيه وعقولهم ، وأن يجدد نفسه دواما ، وكان خلال إنشاده أو غنائه يتحسس ملامح سامعيه ، ويرقب مشاعرهم ، ولو أن ذلك لا يعنى أنّ كل قصيدة أعيد بناؤها فريدة فى بابها . ولم تكن كل أشعار الشعراء موضع تنقيح أو تهذيب ، فبعض القصائد كانت دون إعجاب الجماهير وتقديرها فاختفت سريعا ، وبقيت مدونة ، إذا كانت قد دُوّنت ، فى شكلها الأول بلا تغيير . كما أنّ بعض القصائد استطاع مؤلفها أنْ يضعها منذ أول لحظة فى أنق لفظ ، وأروع جملة ، وأنغم بيت ، وما من حاجة تدعو إلى إدخال تعديل عليها .

كان هناك من يأسى لأن كلمة شاعر جوال تطلق على من يرقّصون القرود ، أو يضحكون الجماهير ، أو يعزفون على الآلات الموسيقية دون معرفة ، أو يغنون فى الشوارع والميادين لغمار الناس ، ثم يهرولون إلى الحانات ينفقون ما تلقوه تفضلا ، دون أن يرقوا إلى مرتبة العمل فى بلاط ملك أو قصر نبيل ، ويرون أن ما يقوم به هؤلا الناس ليس من فن الشاعر الجوال فى شىء ، لأنّ الشاعر الجوّال إنسان مثقف ذكى مقتدر ، يستطيع أنْ يدفع بالصالحين من الناس فى طريق البهجة والمتعة والشرف . ومن ثم دعت الحاجة فى القرن الحادى عشر الميلادى إلى اسم جديد ، يطلق على شاعر متميز ، أشد أصالة وأكثر ثقافة ، وظهر هذا الشاعر لأول مرة فى مقاطعة بروفانس ، يقول الشعر لأول مرة فى اللغة العامية ، ويعبر فيه عن ذات نفسه ، وينشد

ما يؤلف أمام الطبقة العليا فى المجتمع ، وأطلق عليه اسم التروبادور Troubadour تمييزاً له عن الشاعر الجوّال ، وسوف يلتقى معه فى أشياء ، ويختلف فى أشياء أخرى .

• • •

خلال القرن الحادى عشر دعت الحاجة إلى اسم جديد ، يطلق على شاعر متميز ، أشد أصالة وأكثر ثقافة من الشاعر الجوال ، وكانت مقاطعة بروفانس مهيأة لمقدم هذا الشاعر الجديد . لقد تميزت بجمال الطقس ونعومته ، وعلى أرضها استقرت بقايا ثقافة رومانية قديمة ، وشهدت فترة سلام كانت عامل ازدهار قوى ، وفيها بدأ نظام البلديات يستقر ويأخذ شكلاً مجدداً ، ونفقت التجارة فأشاعت الرفاهية بين قطاع عريض من المجتمع وقبل ذلك وفوقه ، أدت إلى تكوين لغة موسيقية وغنية . نفس الظاهرة التى حدثت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، حين كانت مكة موطن التجارة ، وملتقى القوافل والحجيج ، فأصبحت لهجتها أرق اللهجات وأحلاها ، فيها كتب الشعر ، وفيها نزل القرآن ، على ما يقول علماء اللغة والقراءات .

فى مقاطعة بروفانس ظهر شعراء التروبادور ، أو الشاعر المنشد كما يطيب لى أن أسميه ، يقول الشعر لنفسه ، ويعبر عن ذاته ، وينظمه فى اللغة العامية لأول مرة ، وليس فى اللغة اللاتينية ، وينشد ما يؤلف أمام الطبقة العليا فى المجتمع ، وقد حظيت القصيدة الجديدة

بقدر كبير من الشهرة والذيوع، حتى إن كلمة تروبادور هذه دخلت كل اللغات الأوربية، لأنها أكثر تحديداً لمهمة الشاعر من كلمة الشاعر الجوال Jonglaire .

كان ثمة اختلاف منذ البدء بين الشاعر المنشد، أى التروبادور، وبين الشاعر الجوال. لأن الشاعر الجوال ينتزع لقمة العيش بالغناء فى قصائد ليست له، أو له ولكنها غير ذات مستوى، ومن ثم كان على الدوام أقل نبلا من الشاعر التروبادور، ومن جانب آخر ولو أن الشاعر التروبادور كان يغنى فى جمع أحياناً، لم يكن يصنع ذلك حرفة حتى ولو كان فقيراً، كان دائماً شاعر الطبقة الأكثر ثقافة، وكثيرون من الفرسان وهم من الطبقة الاجتماعية العالية كانوا يحاولون أن يصنعوا مثله، يقرضون الشعر ليبرعوا فيه، ويدربون على الموسيقا ليتمكنوا منها، حتى يكونوا فرساناً كاملين.

تاريخياً إذن التروبادور جاء فى مرحلة تالية للشاعر الجوال أو هو تطور له، وقد يكون فارساً كما المحنا، وقد يكون مجرد شخص يقرض الشعر، ومن ثم فهو أرقى اجتماعياً، وأوسع ثقافة، وأعلى تربية، ولو أن الحدود بين الاثنين لم تكن أبداً دقيقة وفاصلة، فقد يرتفع الشاعر الجوال بمواهبه إلى مستوى كبار الشعراء المنشدين، بينما ينحدر الشعراء المنشدون الفرسان إلى جوّالين لكى يربحوا لقمة العيش.

نعم، كان الشاعر الجوال أدنى مرتبة من الشاعر المنشد، لأنه تابع للثانى فى عمله، يغنى أشعاره، ويعزف ألحانه، أما الثانى فيبدع

الشعر، ويجيد الرقص، ويلحن الأغنية، ويصوغ المدائح، وينظم الموشحات. ويطلق اسم «المعلم» على من اتصف منهم بالشعر الرقيق، وعرف بالثقافة الواسعة، والتزم جادة الشرف، ونأى عن كل ما هو مشبوه ومنحرف. ويتجول عادة في صحبة عدد من الشعراء الجوالين، ويتوقف عددهم على حسب أهميته، ويقوم هؤلاء بإنشاد قصائده، ونشرها وروايتها، وهم يغنونها لأصدقائه الذين يود أن يحييهم، أو يطلب عونهم، أو لأعدائه الذين يسبهم ويتحداهم، وقد يسخر التروبادور من راويته الشاعر الجوال، فلا يجد هذا حرجاً في أن يغني شعراً يدور حول سبه وهجائه، ويغالي في تحقيره والتشنيع عليه، ورغم هذا كانا يتعاونان لأن كلا منهما محتاج للآخر، الشاعر التروبادور يقول الشعر ويقرضه، والشاعر الجوال ينشده ويغنيه، وبقي هذا الفرق واضحاً حتى بعد أن فقد الشاعر التروبادور صفة الفروسية والاستقلال، وأصبح الشعر مهنة له يتعيش منها، وتحول إلى مداح لحوح، لأنه بقي دائما شاعر البلاط والقصر والقلعة، ويقف بفنه عند تسلية الملك والأمير والنبيل، على حين أن الشاعر الجوال حتى ولو جرؤ على تأليف الشعر الذي يتغنى به، بقي دائما شاعر الجماهير.

لقد تميز شعر التروبادور بأنه احتفظ من دون سائر الأنواع الأدبية الأخرى بصلته الوثيقة مع الجماهير العريضة، فكان يسمع في الميادين العامة، وفي قصور الإقطاعيين على السواء، وكان هؤلاء يرحبون به ضرورة جمالية حقيقية، لقد وُلد بينهم، ووجد الرعاية منهم، وفضلا

عن الاجتماعات العادية فى البلاطات المختلفة، كانت هناك الحفلات الخاصة، وكان الشعر يحتل فيها مكانة ملحوظة. ويجد مؤرخ الأدب نفسه أمام مجموعة من الشعراء تقدم لنا أعمالهم انسجاماً كافياً، ولها وحدة الطابع والخصائص، وكانت من الدقة والجمال على قدر دفع بها إلى ما وراء مقاطعة بروفانس لتغزو جنوب أوربا كله، وكانت أول قصيدة ذات طابع فنى انفصلت عن اللغة اللاتينية، واقتحمت الحياة الاجتماعية للإقطاعيين، ولم تكن مرتبطة، بشكل مباشر على الأقل، مع الكنيسة، ولا تتحرك بوحيها، ولم يكن لرجال الدين سلطان عليها.

كان أروع إنجاز قام به شعراء التروبادور خارج اللغة، أنهم دفعوا بالشعر خارج الموضوعات القديمة، وعادوا به إلى أعماق الإنسان، لم يعد شعرهم دعوة إلى الحرب، ولا تغنياً بالبطولة، ولا ترنماً بمعجزات القديسين، ولا صلوات رتيبة خامدة الروح، وإنما صورة للنفس الإنسانية بخيرها وشرها، حين تحب وتكره، حين ترضى وتغضب، كانوا باختصار أول من اقتحم فى أوربا العصر الوسيط دائرة الحب، فعاشوه وعبروا عن تجربتهم بكل أبعادها، المضيء والمظلم منها، الوقور والفاجر على السواء.

ولإدراك أهمية هذا الدور كاملا يكفى أن نقارن بين شعرهم وبين ما كانت تعرفه أوربا من أشعار فى الفترة نفسها. فلحمة رولان الفرنسية، وتسبق أول شاعر تروبادور بسنوات قليلة، وتعرض لقضايا الشرف والحرب والخيانة والبطولة، لا تمس من الجوانب الإنسانية إلاّ

صداقة قامت بين رولان البطل وأوليفييه، ولا نلتقى فيها إلاّ أخيراً جداً بفتاة تدعى «أود» تسأل الإمبراطور شارل الأعظم عن خطيبها رولان، ويرد عليها الإمبراطور حزيناً بأنه قد مات، ويقدم لها ابنه عوضاً عنه.

ولا نلتقى بالمرأة فى «ملحمة السيد» [١]، وهى أول وأعظم ملحمة إسبانية إلاّ أماً وزوجة، وفى وقار كامل، تؤدى رسالتها، دون أن تكون موضعاً لإظهار عواطف الزوج رجلاً. والشىء نفسه يصدق على بقية الآداب الأوربية الأخرى.

والصورة التقليدية للشاعر الجوال تلقاها فى شكل شاب شاعر ومغن، فى عباءة حمراء اللون، وحذاء أبيض، وقبعة، يحمل قيثارته، ويغنى لفتاته تحت نافذتها، بينما تقدم له هى زهرة مليئة بالقبل، وهذه الصورة انعكاس صادق لتقليد كان شائعاً.

ولم يكن موقف شعراء التروبادور من الحب واحداً، فقد كان منهم من يفضل الموت طلباً لحب مستحيل، والفقير يأمل ويحلم ويعيش مع أوهامه دون أن يجد لزفراته صدى، ولكن أغلبهم كانوا من السادة، يمضون ساعات طويلة نشوى بوهج الحب، لأن أياً منهم

---

١ ـ ترجمت هذه الملحمة ودرستها تفصيلا، وصدرت طبعتها الثالثة عن دار المعارف عام ١٩٨٣.

سيتلقى عند ما يريد، زهرة من فتاته تغطيها القبل، وفيهم أيضا من كان يمثل الحسية فى الحب بأوسع معانيها.

• • •

ويأتى السؤال: لماذا لم يكتب شعراء التروبادور فى غير الحب، ولم كان هذا الشعر يمثل معظم شعر بروفانس، وكانت هذه المقاطعة أول من عرفه؟.

الواقع أن السبب لا يعود إلى تأثير الوسط أو المناخ أو الشمس فحسب، حتى ولا إلى مزاج أهل الجنوب، وإنما يعود بخاصة إلى طبيعة هؤلاء الشعراء. لقد كانوا يبحثون عن الحياة طويلاً، ما استطاعوا، فى الحصون نفسها، مع سكانها، أو فى بلاط أمير هام يظلهم بحمايته.، والحياة فى الحصون كانت تأخذ فى أيام السلم شكلاً اجتماعياً متحضراً ورقيقاً، فسيدة القصر، وبناتها، ومن يحطن بها، جميلات ومترفات، يعشن فى مواجهة رجال ليسوا مشغولين بالصيد أو حمل السلاح، وفى عصر كان الحب فيه أجل متع الرجل، من الطبيعى حين يكون هؤلاء الرجال شعراء، أصحاب ذوق رهيف أن يتغنوا فى قصائدهم بجمال هؤلاء السيدات وفضائلهن.

ولأنّ صور الحياة متشابهة، وما تقع عليه عيون للرجال واحد، فقد جاءت قصائد شعراء التروبادور متشابهة، لها نفس النغم، وفيها نفس المشاعر، وتتخذ من المرأة نفس الموقف، نفس الظاهرة التى نلتقى بها

عند شعراء الجاهلية، وجانب من العصر الأموى، فى الشعر العربى، حين يتوارد الشعر على نبع الحب، ممثلاً فى المرأة، أو حين يمر الشاعر بنسوة كثيرات، فلا تحس أنه مع واحدة يختلف عنه مع الأخرى.

لقد كان الفارس ينتمى بلا تحفظ إلى سيده، وكان السيد فى مقابل هذا يضفى عليه المساعدة والحماية، وفى المقابل كان شاعر التروبادور ينتمى بلا تحفظ لزوجة السيد، أو السيدة الأولى فى قصره، وهى بدورها تشمله بالتشجيع والرعاية، وكان الشاعر، على العكس من الفارس، يجد فى ابتسامة عذبة، يتفتح عنها ثغر حلو، أفضل تعويض يتلقاه عما يبذل من جهد، مبدعاً وخالقاً فى مجال الإنشاد والغناء. وكانت السيدات بدورهن، قتلاً للفراغ، وطلباً للشهرة، واستمتاعاً بالفن أحياناً، واستجابة لدوافع عاطفية أحياناً أخرى، يشجعن الشعراء على القول، ويثرن فى داخلهم حُميَّا الرغبة، ويدفعن بالشاعر ليصبح مع الزمن شهيد هذا الحب.

• • •

ليس سهلاً أن نحكم على هذا الحب، أكان مخلصاً ثابتاً يتسم بالوجدانية، أم نزوة عابرة، لا تثبت عند امرأة، وهل كان نقياً نموذجياً يتغنى بالجمال، وتأسره العيون الفاترة، والوجوه الآسرة، دون أن يتجاوز عبادة الجمال إلى ما وراءها، أم كان حسياً لا يقنع بالتأمل، ولا يكتفى بالوله، وإنما يريد أن يقع فيه حتى يتطهر به إثماً

ودفئاً، إذ الواقع أننا نلتقى بكل هذه الألوان، وهى فيما أرى كلها صادقة، إن لم تكن تاريخيا ففى مجال الفن على الأقل.

أول شاعر تروبادور عُرف، ووصلتنا أخباره، وجانب كبير من قصائده هو جيوم التاسع (١٠٧١ ــ ١١٢٧م)، وإليه يُنسب ابتداع الشكل الجديد للشعر الغنائى، والذى يتخذ من شكل الموشحة العربية قالباً ينظم فيه أشعاره، وهى قضية خطيرة ومعقدة، لم ننتبه لها بعد فى الدراسات العربية، وأرجو أن أعود إليها يوماً. ولم يجدد جيوم فى الشكل فقط وإنما فى موضوعات هذا الشعر أيضاً، فكان أول من تغنى بجمال المرأة، ودفعها إلى أن تحس بقيمتها كأنثى.

وكان جيوم هذا طرازاً فريداً من الشعراء، ومن الإقطاعيين فى الوقت نفسه، فقد كان دوق أقيطانية، وكونت بواتييه، تابعاً للملك فرنسا، ولكنه أقوى منه سلطة وأوسع أملاكاً، وكان يحكم مقاطعته مستقلاً تماماً، ويتعامل فى حرية كاملة مع سيده، ومع البابا والمطارنة، ومع الأخلاق والتقاليد. وحين يدعو البابا إلى الحرب الصليبية يرفض هادئاً أن يستجيب له، ولكنه بعد ذلك يجمع ثلاثين ألف مقاتل ويرحل إلى الشرق وحده، يمضى فى حملة غير مدفوع بأسباب دينية أو سياسية، وليس هناك من حمله عليها، وإنما ينهب لأن أناشيد الحرب الصليبية التى عمت أوربا بعد عودة الصليبيين من معاركهم أثارت فضوله، وأثارت لعابه إلى المغامرة، ومعها عرف طعم المرارة، فقد كانت نهاية الحملة كارثة مروعة، وبعد عودته كان عليه

أن يقاتل رعاياه لسنوات طويلة، فقد كانوا يهدفون إلى الاستقلال عنه، وعاش هذه الموجات من الحرب والسياسة بطلا رومانياً، ولكنها فى مجال الفن والذوق أثمرت فى أعماقه شاعراً غزلاً، بل أول شاعر على هذا النحو فى أوربا العصر الوسيط.

ولم تصلنا آثاره كاملة، وكل ما وصلنا منها بضع قصائد، ويهمنا منها قصيدته الخامسة «التى يحكى فيها بأسلوب لاذع أنه لقى أثناء رحلته فى مقاطعة (أوفرنى) سيدتين هما: آنييس وأرمسن، وبعد أن حيته كلتاهما فى أدب جم، توجهت إليه إحداهما بالخطاب فى (لاتينيته) فقالت: رعاك الله من مولى وحاج، إنك فيما يخيل إلىّ قادم من مكان كريم، ولكن ما أكثر من نراهم يمشون فى هذا العالم من الحمقى».

فقال الشاعر: وهذا جوابى. ولم يتكلم عن السلاح ولا عن السنان، وإنما قال لها: «...».

ثم يلى ذلك أربعة أبيات من الشعر لم يجد فيها العلماء حتى اليوم إلا «تخليطا»، ولما سمعت إحدى الفتاتين تلك الرطانة التى استعصى عليها فهمها، مالت إحداهما إلى الأخرى تقول: «لقد اهتدينا إلى ضالتنا، بالله عليك يا أختاه لتأخذه ضيفنا الليلة، فهو أبكم وحالنا لن ينكشف معه قط». ويمكن أن يتنبأ المرء بباقى القصيدة، فى من لون مغامرات **إمرئ القيس**.

لقد رحل جيوم إلى المشرق فى حملته الصليبية التى أشرنا إليها قبل، عامى ١١٠١ ــ ١١٠٢م، وأقام فى الشام حقبة من الزمن، وجاء إلى الأندلس عام ١١٢٠م، ليساعد الفونسو المحارب فى معركة «كتندة» ضد مسلمى الأندلس، وتزوج من أندلسية هى ابنة رامیرو الراهب ملك أرغون، وذلك يعنى تأكيداً أنه كان يعرف أشياء كثيرة تتعلق بالإسلام والبلاد الإسلامية، ويرجح أنّه كان يعرف اللغة العربية بقدر لا بأس به، يمكّنه من أن يقرأها، ويتفاهم بها، وليس ثمة شك فى أنّ غناءها وأشعارها كانت مألوفة لديه.

أمّا الشخصية الثانية التى نلتقى بها من شعراء التروبادور فهو جوفر رودل، وكان أميراً مثل جيوم، ولو أنه ليس فى مستواه عراقة أسرة، واتساع مقاطعة، ومعلوماتنا عنه محدودة، ولكننا نعرف أنه كان معاصراً لجيوم، وكان حفياً بالحب مثله، يعبد المرأة، ووقف عليها أشعاره، ولكن فى حسية أقل مما كانت عليه عند جيوم.

وتحدثنا المدونات أن جوفر فى رحلته إلى الشرق خلال الحروب الصليبية عشق أميرة طرابلس، وكانت إلهامه فى قصائده، وبعد إقامته فى المشرق، وحبه للأميرة، غير كل أفكاره عن المرأة، وتميزت أشعاره عنها بالدفء والحنان، ومن أجلها رحل فى الحرب الصليبية الثانية عام ١١٤٧م، بأمل أن يلقاها، ولكنه احتضر على مشارف المدينة، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين يدى الأميرة، وكان أول شهيد حب فى قائمة هؤلاء الشعراء الغزلين.

وبين هذين الاثنين من أمراء السياسة والحرب والحب، تأتى شخصية «مركبرون»، وهو أكثر غموضاً من صاحبيه، وكان على نقيضهما، عاش فقيراً ومغموراً وضائعاً، وفى مجال الشعر أيضاً يقف منهما فى الطرف المقابل، فهو يحقر كل ما يهتمون به، ونلتقى به فى قصائده تعس الحب، يعانى من برحائه، ويائساً من نعمائه، وفيما يبدو لم يكن موفقاً فى حبه، فأنغامه حزينة، ونهايات حبه كلها مأساوية، ونلتقى بالمرأة عنده فى شكل فتيات رحل أحباؤهن فى الحروب الصليبية، وتخلفن وراءهم، يعانين من شقاء الوحدة، ومن قلق ألاّ يعودوا، أو فتاة راعية، عرفت كيف تقاوم نشوة الإطراء من شاب غَزِل مر بها، وحاول أنْ يبلغ معها غاية الحب، والنتيجة الحتمية لمواقفه هذه أن يلعن الحب، وأنْ يلقى تبعة بؤس الشباب عليه، فى عبارة قاسية وشديدة لا تعرفها القصيدة التروبادورية التقليدية.

وقد قضى مركبرون حياته يطوف بمقاطعة «بروفانس»، وفى عام ١١٣٧م اجتاز جبال البرانس إلى الأندلس، وفى قشتالة ألف قصيدة يدعو فيها إلى مساعدة الفونسو السابع فى حربه مع المسلمين، واشترك فى إحدى هذه الحملات التى جاءت إلى الأندلس لمساعدة الكاثوليك فى حربهم ضد المسلمين.

وبعد هؤلاء سوف تصبح الظاهرة قاعدة، وستكون لشعر التروبادور خصائصه القائمة على شكل الموشحات العربية، وموضوعاته، وحتى بعض تعاريفه، المأخوذة من الشعر الأندلسى، وقد

وجد صدى طيباً فى جنوب أوربا كلها ، وبلغ عدد شعرائه الذين وصلتنا قصائدهم ٤٦٠ شاعراً ، بينهم إحدى وعشرون امرأة . وسيكون الرائد لكل الشعر الأوربى الحديث ، وكما حدث للقصيدة الجاهلية ، حين يعسر علينا معنى بعض أبياتها ، أو لا نتوصل إلى مفهوم الكلمة الدقيق ، أو تتراجع أذواقنا أمام بعض صورها ، حدث ذلك كله لشعر التروبادور ، ولكنه إذا كان ذلك إحدى عذاباته ، فهو مصدر جمالها ومتعته أيضاً ولقد ثار جدل كبير عن البواعث التى أدت إليه ، وعن الظروف التى اختارت هذه البقعة من أوربا لتكون مهبطاً له ، ووقف كثير من العلماء حياتهم على أبحاثه ، ولكن الجانب الأوضح والأصدق من التأثير ، وهو الجانب العربى ، لمّا يدرس ، والأمل أن يكون موضع دراستنا يوما وبالتفصيل .

خوان أندريس
راهب أنصف الحضارة العربية

بين من عُنوا بالتأريخ للحضارة والآداب العالمية فى القرن الثامن عشر مؤرخ أودّ أن أقف عنده قليلاً، لأنه أنصف العرب والحضارة العربية فى زمن كانوا فيه هملا وعزّت عليهم النصفة، ودفع ثمن إنصافه غاليا، ويكفى أن أقول إننى شقيت طويلاً وأنا أفتش له عن سيرة، لأن المعاجم الصغرى والوسطى أهملته تماما، فى مختلف اللغات، وأمّا الكبرى فخصته بسطور قليلة، أوردت فيها مؤلفاته، دون أن تقول عنه شيئاً يذكر، رغم أنه عاش فى وضح التاريخ، إنه راهب إسبانى من اليسوعيين يُدعى: خوان أندريس.

وُلِدَ خوان أندريس Juan Andrés فى قرية بلانيس من مقاطعة بلنسية عام ١٧٤٠م، وكانت هذه المقاطعة أيام الحكم الإسلامى تربة مهيأة لازدهار الثقافة العربية، فقد نأى بها موقعها الجغرافى غداة الفتح عن الثورات والفتن والقلاقل السياسية، وجذب إليها اعتدالُ جوّها، ووفرة خيرها، أسراً عربية نبيلة، وأصبحت فيما يقول المؤرخ الأندلسى ابن سعيد «متمكنة الحضارة، جليلة القدر»، وترك ذلك كله أثرا واضحا فى حياة الناس، عاداتهم وأخلاقهم، وآدابهم.

وكان ثلث سكان المنطقة على الأقل حتى مطلع القرن السابع عشر، يتحدث العربية ويدين بالإسلام، سرًا أو علانية، ويقاومون قهرهم على اعتناق الكاثوليكية، وإرغامهم على اتخاذ الإسبانية لغة، فى إصرار عنيد، وصلابة غير عادية، إلى أن صدر قرار طردهم النهائى من وطنهم عام ١٦١٣م. ويعلق كاتب بلنسى معاصر لنا على هذه الأحداث فيقول: «لا أعرف ما إذا كان نفى هؤلاء المواطنين فى أعداد هائلة يمثل خطرا على الملكية فى إسبانيا أم لا، ولكنه على التأكيد كان بالنسبة لمنطقة بلنسية كارثة مدمرة. أعداد الذين قُتِلوا كانت مرعبة، فى أرقامها على الأقل، ولم تكن الأضرار الاقتصادية دون ذلك، لقد دَرَسَت الحقول، وأصحرت القرى، وتوقفت الصناعات، وشاع تزييف العملة، وانتشر قطّاع الطرق، وكانت حصيلة ذلك كله: أنقاضاً!. ومازلنا نعانى حتى الآن من لذعة هذه القرصة» [١]، ومازال الكثير من أسماء القرى فى هذه المنطقة يحمل أسماء عربية: بنى قيس Benicáis، وبنى عيسى Benisa، وابن الوزير Benaguacil، وابن على Benali، وابن إدريس Benedris، وبنى عاصم Beniásim، وبنى إبراهيم Benibrahim، وبنى خلف Benicalefe، وبنى قاسم Benicásim، ومئات أخرى غيرها.

فى هذا الجو نشأ وتربى خوان أندريس، ولا نعرف شيئا عن طفولته، ولا شيئا كثيرا عن شبيبته، ولكننا نلتقى به راهبا ينتمى إلى

(١) Joan Fuster: Poetas, Moriscos y Curas, P. 13. Madrid 1969.

طائفة اليوسوعيين. وفى ضوء نتاجه، ومع غيبة المصادر المعينة، نستطيع أن نرد رواقد ثقافته إلى نبعين أصيلين، أولهما عربى يتمثل فى الحكايات والأساطير ومظاهر الحياة العملية واليومية التى استقرت فى مسقط رأسه عن العرب، ولم يكن مضى على طردهم من وطنهم عند مولده أكثر من قرن ونصف من الزمان، ويُقَدّر عدد هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بمليون من المسلمين، ولكنهم لم يذهبوا جميعا، لقد تخلّف منهم آلاف، حماهم الإقطاعيون ليفلحوا لهم الأرض، وخبّأهم أصحاب المصانع ليفيدوا من مواهبهم. وهى آثار لاتزال باقية حتى أيامنا هذه، وكانت سببا كافيا لكى تقدم لنا مقاطعة بلنسية عددا من المستشرقين العظام، يأتى على رأسهم العالم الجليل **خوليان ريبيرا** (١٨٥٨ ــ ١٩٣٤)، صاحب الأبحاث العميقة المنصفة، وتلميذه **فرانسيسكو بونس**، وقد اعتُبط عام ١٨٩٩ فى سن فتيّة، لمّا يتجاوز الثلاثين من عمره، ومع ذلك خلّف لنا ترجمة لكتاب ابن طفيل: «حى بن يقظان» إلى اللغة الإسبانية، ودراسة رائعة، رغم أن الزمن تجاوز مافيها، عن «تاريخ وآثار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين». ومقالات وأبحاث أخرى.

والرافد الثانى تعاليم اليسوعية، وكان اليسوعيون أمة وحدهم فى تاريخ التعليم الأوربى الحديث. لقد أسس هذه الطائفة الراهب الإسبانى **إجناثيو دى لويولا** (١٤٩١ ــ ١٥٥٦م) عام ١٥٣٤م، إذ كان يرى، ومعاونوه، أنّ خير وسيلة لمقاومة دعاة الإصلاح الدينى من

البروتستنت، أنْ يجتمع لأتباع المذهب الكاثوليكى فضيلتا التديُّن والعلم، ومن أجل هذا جعلوا همهم أن يعلّموا ناشئتهم أغزر العلم، وأشقه جهدا، وأكثره تجويدا، وأعدوا لذلك منهجا يشتمل على كل ما فى الأدب من روائع، وجعلوا شعارهم ينبغى لنا أن نحب خير الأشياء إذا وقعت أبصارنا عليها، واعترفوا بأنهم كانوا يتخذون من الآداب الرائعة شباكا يتصيّدون بها النفوس.

كان واقع الحياة حوله، ومنهج الطائفة التى ينتمى إليها، يدفع به إلى البحث فى الحضارة العربية، ويمكن القول بأنه كان يعرف اللغة العربية، فقد كان تعليمها وتعلّمها شائعا على أيامه، فى مسقط رأسه، وبين طائفته بخاصة، وفى إسبانيا بعامة، ولكننا نستبعد أن يكون قد أجادها تماما، ويذكر هو نفسه، على ما سننقل عنه فيما بعد، أنه أحسّ بسعادة غامرة حين تلقى «فهرس المخطوطات العربية فى الإسكوريال»، الذى ألّفه **ميخائيل غزيرى**، وأهداه إليه الملك **كارلوس الثالث**، وما كان له من بالغ الأثر فى توجيهه. وقد ضمّن مؤلف الفهرس كتابه نصوصا كثيرة باللغة العربية، وترجم جانبا منها إلى اللغة اللاتينية، ولو أن الترجمة لم تكن دقيقة على الدوام.

غير أن حياة **خوان أندريس** لم تظل فى إسبانيا، فقد تجاوز طموح اليسوعيين الجانب التربوى والدينى، وجعلوا منها طريقا إلى القوة السياسية، وإلى السيطرة على السلطة الزمنية، فاصطدموا مع الملك **كارلوس الثالث** (١٧١٦ــ ١٧٨٨)، وكان شخصية فريدة وفذة

فى تاريخ الملوك فى إسبانيا الحديثة، ويشبه فى نواحى كثيرة الخديو إسماعيل فى مصر، عمل حاكما على نابولى فى إيطاليا قبل أن يجىء إسبانيا ملكا، ورأى الكثير من مظاهر التقدم المادى والفكرى خارج وطنه، فلما آل إليه العرش عام ١٧٥٩م، وجد إسبانيا فى حالة من الشقاء والبؤس والتخلّف ما يخجل معه أن يكون ملكا عليها. فأمر بإضاءة شوارع العاصمة والمدن الكبرى، وكانت غارقة فى الظلام منذ سقوط دولة الإسلام فى الأندلس، لأن رجال الدين الكاثوليكى كانوا يرون فى النور عادة إسلامية يجب التخلص منها. وأمر بتغيير القبعات، وتقصير العباءات، وبدأ فى إنشاء الطرق والموانى والمبانى العامة. وحثّ الأكاديمية الإسبانية على أن تنشر «قاموس اللغة الإسبانيـــة»، وأمهات كتب الأدب الإسبانية، وفى عهده نُشِرَ أول فهرس للمخطوطات العربية فى الإسكوريال، ولم يكن يهتم كثيرا بمعارضة الناس له، ويرى «أن رعيّته كالأطفال يبكون حين يؤخذون إلى الحمّام». وألغى محاكم التفتيش، وأقيمت لملاحقة اليهود، ودعاة الإصلاح من المسيحيين، واجتثاث المسلمين بعد سقوط دولة الإسلام، وظلت قائمة حتى أيامه، وكانت حبة عين وقلب الملوك والبابوات قبله. وعندما أحسّ بأن اليسوعيين يعارضون إصلاحاته، ويثيرون العامة عليه، حلّ نظامهم فى ٢ من أبريل عام ١٧٦٧م، وصادر أملاكهم، ونفاهم خارج الدولة، وطلب من البابا كليمنت الرابع والعشرين أن يلغى نظامهم هذا، فاستجاب له، وأصدر قرارا بحل

طائفة اليسوعيين عام ١٧٧٣م، وكانوا أقوى منظمة عرفتها الكنيسة الكاثوليكية [١].

وعندما صدر قرار طرد اليسوعيين من إسبانيا، انسحب خوان أندريس إلى إيطاليا، وفيها أمضى حياته، ولقد أصبح أمين مكتبة القصر الملكى فى نابولى، ولم يعد إلى إسبانيا إلاّ مرة واحدة حين توفى والده، ولكن الحال فيها لم يعجبه، فلم تطل إقامته بها، وعاد إلى إيطاليا من جديد، وتوفى فى روما عام ١٨١٧م.

فى إيطاليا ألّف خوان أندريس عددا كبيرا من الكتب الهامة، يهمنى أن أشير من بينها بخاصة إلى: «رسالة عن موسيقا العرب»، والكتاب الثانى وألّفه باللغة الإيطالية، وجاء فى سبعة أجزاء كبار، ونشره فى برما Parma بين عامى ١٧٨٢ و١٧٩٨م، وأسماه: «أصول الأدب بعامة، وتطوراته، وحالته الراهنة:
"Dell' origini, progressie estato attual L'ogni Letteratura
وفيه شغل الحديث عن الفكر العربى مساحة تبلغ الجزأين تقريبا، وكان كالجاحظ من قبل، وربما على نحو أوضح، أول من التفت إلى التأثير والتأثر المتبادل بين الحضارات والآداب، وأول من وضع يده على تأثير الأدب العربى فى الآداب الأوربية، ودرس ذلك على نحو منهجى بقدر ما تسمح به ظروف عصره، وتتبع مصادر التأثير وروافده،

(١) غير أن البابا بطرس الرابع أصدر أمرا عام ١٨٨٤ بإعادة نظامهم، وهم اليوم يكوّنون قوة هائلة داخل الكنيسة الكاثوليكية، وأصحاب نفوذ بالغ، وينتشرون فى معظم أقطار الأرض، أساتذة ومبشرين وجواسيس. ولا يدانيهم فى القوة إلاّ المنظمة السرية للكنيسة الكاثوليكية، وتحمل اسم أوبوس ديى Opus Dei، أى «عمل الله»!.

وإن لم يكن قد عرف بعد، لا هو ولا غيره، أن ثمة علماً سيُعنى بهذه القضايا اسمه: الأدب المقارن. ولقد سبق عصره بكتابه، وخطا الخطوة الأولى ببحثه، وإن تجاهله الدارسون الأوربيون، دعاة العالمية، لأنه قال، إن كل آدابهم تدين للأدب العربى.

يقول خوان أندريس فى مقدمة كتابه: «لم يدرس أحد الأدب العربى حتى الآن بما يتفق وأهميته.

«ولقد قدم لنا هوتينجر Hottinger وإربلوه Herbelot وبوك Pocok وآخرون معلومات وافرة، يمكن أن تساعد، على نحو ما، فى إنارة طريقنا إليه، ولكن أحدا لم يحاول أن يعرّفنا به على نحو دقيق. لقد دفعت بى المادة، وهى جديدة، إلى البحث المتحمّس، وآمل أن أخرج منها بنتائج سارة، ولحسن الحظ فإن كرم الملك الكاثوليكى كارلوس الثالث، وهو المنشّط المجيد للدراسات الأدبية، شرّفنى بإهدائى فهرس مكتبة الإسكوريال العربية، الذى ألفه غزيرى، وهى هدية لا تقدر فى الحقيقة بثمن، لمكانة المُهْدِى، وللذخائر التى تضمها الثقافة العربية. وما أعظم ما أدين به لعمل غزيرى الخالد، وكم أفدت من أخباره، إنّ كل ما هو وارد هنا عن القسم العربى أدين به لفضله.

«إن هذه المخطوطات القيمة جعلتنى أقف على الدور الكبير الذى لعبه الأدب العربى فى نهضة أوربا الحديثة، ولتوضيح هذه النقطة الهامة، وما أكثر القضايا التى تفرعت عنها، وكان يجب علىّ أن

أفسّرها، وما أكثر الأبحاث الجديدة التى كان يجب علىّ أن أقتحم لُجّها. وإن معرفة الأدب الإسبانى، وهو مجهول لكثيرين كالأدب العربى، ودراسة كتّاب العصور الأولى، وهم اليوم فى عالم النسيان، وتحديد أصول الثقافة الحديثة ولغاتها وشعرها، ودراسة شعراء إسبانيا، وشعراء بروفانس القدامى، وأبحاث أخرى كثيرة، ليست بأقلّ عذابا وأشد ضرورة، كل ذلك أضاء لى الطريق لاكتشاف الحقيقة. ولقد تبدو غريبة لكثيرين، ولكنها الحق خالصا: إنّ الفكر الحديث يعترف ببنوته للعربية، لا فى العلم فحسب، وإنما فى الأدب أيضا. ولكى أوضّح على نحو أفضل تأثير العرب فى ثقافة أوربا، أردت أنْ آتى بجديد فى قضية تتصارع أمم كثيرة حولها عبثا، كل يدعى هذا الشرف لنفسه، بينما نحن جميعا، ندين به لأولئك العرب: الورق، والأرقام، والبارود، والبوصلة، كلها جاءتنا عن العرب، وربما الساعة الذبذابة أيضا. والجاذبية، وبعض الاكتشافات ذات الضجيج الآن، كانت معروفة عند تلك الأمة، وكثير غيرها، قبل أن تبلغ أخبارها آذان فلاسفتنا.

«وكذلك المدارس والمراصد والمجامع العلمية، ومؤسسات أدبية أخرى، لا نفكر فى أننا ندين بوجودها للعرب».

«أما وقد تهاوت الفكرة السائدة، والمناهضة للأدب العربى، فمن الضرورى أن نحارب فكرة أخرى ليست بأقل شيوعا، وهى فى صالح الإغريق. إنهم لا يملّون القول فى أن بعث الدراسات القيمة فى أوربا

المسيح، كما يبدأها المسلمون باسم الله، وأن تتلى أسماء الله فى الكنائس، كما يرتل المسلمون القرآن فى المساجد. وكان يكتب فى العربية على نحو مايكتب فى لغته القطلونية [١]، ويستعملها فى حواره مع المسلمين، وفى التبشير بالمسيحية فى شمال أفريقية، وكتب مؤلفه: «كتاب الكافر والعلماء الثلاثة» بالعربية أولا، ثم ترجمه بنفسه إلى اللغة القطلونية، وهو كتاب كان واسع الذيوع فى العصور الوسطى، وترجم إلى اللغات: العبرية واللاتينية والفرنسية والإسبانية [٢]. وذهب إلى أن ديكارت أخذ عن أعلام الفكر والجدل المسلمين مبدأه الذى يقول: «أنا أفكر فأنا موجود».

وفيما يتصل بإسبانيا، أشار هذا اليسوعى العلامة إلى حقيقة بالغة الأهمية، وهى استعمال الناس فى الأندلس لغتين دارجتين: إحداهما عربية، والأخرى رومانثية [١]، ولم تغب عن ذهنه حسرات ألبرو

---

(١) قطلونية: مقاطعة فى إسبانيا، فى الشرق الشمالى منها، عاصمتها برشلونة، ويتكلم أهلها لغة لاتينية تختلف عن الإسبانية، وتشهد الآن ازدهارا، فيما يكتب بها وينشر من مؤلفات.

(٢) درس المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا الأصول العربية لفلسفة رايموندلل، أو لوليو، وقد ترجمنا هذه الدراسة فى كتابنا: دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩.

(٣) تطلق كلمة Romance على اللهجات التى تفرعت عن اللاتينية، ثم تطورت لتصبح اللغات الأوربية اللاتينية الحديثة، كالفرنسية، والإسبانية والإيطالية والبرتغالية وغيرها.

القرطبى Aluaro de Córduba المعروفة [١] ، ولا خفى عن علمه وجود بضع مئات من الوثائق العربية فى كنيسة طليطلة الجامعة ، خلّفها النصارى الذين كانوا يستعملون العربية فى كتاباتهم . ورأى أن الشعر الإسبانى إنما نشأ فى أول أمره تقليدا للشعر العربى ، لأن من الطبيعى ، فيما يرى ، أن ينمّى تعامُل النصارى مع المسلمين رغبةَ التقليد عندهم ضرورة ، كما أن تعامل الفرنسيين مع الإسبانيين ، مسيحيين أو مسلمين ، ورحلات شعراء التروبادور [٢] ، تجعلنا نؤكد «بأن الشعر البروفنسالى يجب أن يعترف بأبوّة الشعر العربى له ، قبل أن ينتسب إلى الشعر الإغريقى أو اللاتينى» ، لأن البروفنساليين لم يكن لديهم علم بهذين الأدبين ، على حين كان الإبداع العربى أقرب إليهم مورداً .

ويرى أن قافية الشعر العامى ، وأشكال الشعر الحديث ، وخاصة ما اتصل منها بالشعر البروفنسالى ، والذى أثّر بدوره فى الشعر الإيطالى ، قد أُخِذتْ عن العرب . وذهب إلى أن موسيقا التروبادور وألفونسو العالم ذات أصل عربى ، ولاحظ أن الحكايات والقصص

---

(١) هذا الراهب شكا من إقبال المسيحيين فى عصره ، فى قرطبة ، فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، على اللغة العربية ، وإجادتهم لها ، وإهمالهم اللغة اللاتينية ، انظر كتابى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٢) انظر فى هذا الكتاب الفصل الخاص بشعراء التروبادور ص ١٨١ ، وكتابى ملحمة السيد ، ص ٣٧ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

يعود إلى سقوط القسطنطينية، وأن الإغريق المهزومين جاءوا معهم فى القرن الخامس عشر بحب الأدب، كما أدخلوه فيما مضى إلى جوانب أخرى منها. أما أنا فعلى العكس، سوف أظهر أن سقوط الإمبراطورية الإغريقية لم يفد الأدب اللاتينى إلاّ إفادة محدودة للغاية، ذلك أن إيطاليا كانت قبل هذا الوقت مثقفة جدا، ولها ذوق فى الأدب والفن أفضل مما كان عند الإغريق».

لقد وجد نفسه فى الحقيقة بإزاء شعب بلغ من الحضارة مرتبة عالية، وبشعوب أخرى حوله متأخرة الثقافة، فتراءى له بطبيعة الحال أنّ أولئكم لابد أن يكونوا قد أعاروا تراثهم الأدبى لهؤلاء. يقول: «بينما تبذل المدارس المسيحية جهدها فى تلقين الناس الأناشيد الدينية، وتعلّمهم القراءة وعدّ الأرقام، وبينما يهرع الناس جميعا فى فرنسا إلى مدينتى متز Metz وسواسون soissons [1]، يحملون معهم أناشيدهم الكنسيّة، لكى يلخّصوها على النحو المتبع فى كنائس روما، نجد العرب يبعثون السفارات بحثا عن الكتب القيمة، إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويرحلون ليستزيدوا معرفة بالتاريخ الطبيعى، وينشئون المعاهد لتدرس فيها العلوم بشتى أنواعها».

---

(١) متز: مدينة فرنسية، على مقربة من الحدود الألمانية، وتبعد ٣١٢ ك.م شرقى باريس.

سواسون: مدينة شمالى شرقى باريس، وعلى مقربة منها، وتقع على ضفاف نهر إيسن.

ثم يذكر الترجمات التى قام بها العرب لآثار الفرس والهنود والسريان والمصريين، والإغريق من بينهم بخاصة. ويشير إلى الجانب الذى كان له أثره من النصوص الإغريقية التى تُرجمت من العربية إلى اللاتينية، فى بعث حركة المدرسين Scolastiques .

ويذهب خوان أندريس إلى أن حركة التأليف العلمى فى أوربا، فى مجالات الطب والرياضة والعلوم الطبيعية، تدين بنشأتها إلى العرب، ويدلّل على ذلك بذكر عدد من الاعلام الذين اضطلعوا بترجمة التراث العربى إلى اللغة اللاتينية يومئذ، وبالذين جاءوا منهم طلابا إلى الأندلس الإسلامى فدرسوا فى معاهده، وعادوا إلى بلادهم علماء نافعين. ولن أقف طويلا عند هذه التأثيرات العلمية، لأنها تتجاوز نطاق الكتاب ومنهجه، ولكن يهمنا منها بخاصة ما اتصل بالأدب وفنونه.

كان خوان أندريس يرى أن الفيلسوف القطلونى رايموندو لوليو R. Lulio (١٢٣٥ — ١٣١٥م)، وهو من جزيرة ميورقة، يدين للأدب العربى فى كثير مما كتب، وأنه فى نظرياته الفلسفية اتكأ على تراث ابن عربى (١١٦٤-١٢٤٠م). فقد كان الفيلسوف مأخوذا بإخلاص المسلمين لدينهم، وأظهر فى تآليفه ودّا خالصا وعميقا نحوهم؛ وجاء ذلك وليد معايشة طويلة للتراث العربى، وحاول أن ينقل الكثير من التقاليد الدينية الإسلامية إلى الحياة المسيحية، فنادى بفصل النساء عن الرجال فى الكنائس، وأن تبدأ الرسائل باسم

والأساطير الخرافية ترجع فى نشأتها إلى أصول عربية أيضا ، وذكر أن ليبيف Lebeuf أثبت أن تاريخ شرلمان ورولان ، الذى يُنسب زيفا إلى توربان أسقف مدينة رانسى بفرنسا ، المتوفى عام ٨٠٠م ، إنما هو من تأليف رجل إسبانى ، وهذا الكتاب يعتبر أباً لكل قصص الفروسية التى جاءت بعده .

وقد بقيت إشارات هذا اليوسوعى المنفىّ عامة ، لا يمكن توثيقها كاملة فى عصره ، لأن تراث الأندلسيين لمّا يكن قد نُشِر منه شىء . أما اليوم ، وبعد ما يقرب من مائة وثمانين عاما على تأليف كتابه ، فيمكن توضيح هذا القضايا على نحو أفضل ، فى ضوء ما يتحصّل لدينا من حقائق اكتشفها المستشرقون ، إسبانيون وأجانب ، وتسمح لنا بأن ندرك قيمة التأثيرات المختلفة التى باشرها الأدب العربى فى الأندلس فى الآداب الأوربية المختلفة ، والأدب الإسبانى من بينها على نحو خاص .

كان كتاب خوان أندريس خطوة واسعة نحو أدب مقارن حقيقى ، وإن لم يحمل اسم الأدب المقارن ، ولا كان تطبيقا دقيقا لمناهجه ، فلم يكن ثمة علم قد ظهر بعد يحمل هذا الاسم وله مناهجه الواضحة ، وحسبه من فضل أن وضع يده على جوهره : التأثير المتبادل الذى يتجاوز حدود الأدب القومى .